كتاب

بنت الحكيمة أو حياة عائشة وغرامها

الجزء الثاني

تأليف

هنري رايدر هاجرد

Henari Raider Hagrd

بنت الحكيمة

او

حياة عائشة وغرامها

تأليف

الروائي الكبير الدائم الصيت

« السر ريدر هجرد »

نشرت تباعاً بجريدة الاهرام

الجزء الثاني

يطلب من المكتبة التجارية اول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

مطبعة المكتبة التجارية

الفصل الثالث عشر

مصير فرعون

لما ذهب فرعون وابنته ودعت فيلو فشكرته على ما قدمه من الخدمات الجليلة ومنحته بركات المعبودة فتقبلها جاثيا على ركبتيه . ولما وقف أقسم أن يقف حياته على خدمتي وأن يلبي دعوتي ولو كان في اطراف العالم ثم أراني أيضا كيف أدعوه برموز سريه

لم أغادره دون مكافأة . فقد أعطيته بعض اللآلىء الغالية التي أغدقها على تيتس هبة من المعبودة ثم ودعته بعد ذلك فانصرف ولو انه كان كل [illegible] أن هذه ليست المقابلة الاخيرة

ثم [illegible] كهنة ايزيس وكاهناتها خبر قدومنا حتى ازدحموا على [illegible] لاستقبال موت رئيس الكهنة واستقبالي [illegible] رئيسة [illegible] الاغاني المقدسة وساروا بنا في [illegible] مجتازين شوارع [illegible] ايزيس وكان يرافقنا كثيرون من بحارة السفينة [illegible] . على انى لاحظت أن واحداً منهم غير موجود فسال [illegible] موت قائلا

ـ أين الكاهن كالكراتس ؟

فتبسم وأجابني قائلا

ـ أنني سم أحدوه في قصر فرعون لكي يعتني به حتى يبرأ من جراحه . من المحتمل أن يكون قد استقر رأيه على أن يلازم خدمة المعبودة مؤقتا ويستمر حاملا درع الحرب والقتال ومع ذلك لا [illegible] اف يا ابنتي

فان الذين وضعت ايزيس يدها على جبينهم لا بد أن يعودوا اليها في الحياة أو في الممات

فاجبته قائلة

— نعم لا بد أن يعودوا اليها في الحياة أو في الممات

وبعد ذلك لم أسأله شيئاً عن كالكراتس هذا

وصلنا الى الهيكل وسط ابتهاج الشعب بعودتنا سالمين فقدمنا الذبائح والقرابين ثم وضعت اللآلىء التي اهداها اياي تينس على تمثال ايزيس المصنوع من المرمر داخل مقصورتها الداخلية التي لا يدخلها غيري ورئيس الكهنة . وقد تقبلت المعبودة هذه الهبة اذ خاطبتني بلسان نوت قائلة

— اعلمي يا ابنتي اني رأيت كل ما جرى لك وما سيجرى . واذا كان البرابرة يتهددون البلاد وما فيها من الهياكل والمعبودات فمكاني هنا الى أن تتاح لكم مغادرة البلاد . واني اقسم لك ويقوني أن لا يصيبك أو من معك أذى . وعلى ذلك امكثي هنا وتدرعي بالصبر حتى تتاح لك الفرصة وافعلي ما أوحيه اليك حتى تصبح كلمة آلهة مصر على رؤوس الكلاب الذين سيأتون لتدنيس المعابد والهياكل

نطق نوت بهذه الكلمات وهو في شبه غيبوبة لم يفق منها الا بعد قليل حتى أخبرته به فيما بعد فانصت الى قولي باهتمام ثم أمرني بالطاعة قائلا

— اضرع اليك يا ابنتي أن تطيعي ما أمرت به حتى ولو غبت عنك مدة كما سيحدث ذلك فعلا وقضيت زمنا اشهر فيه في حجرة بالانفراد واذا غبت عنك فلا تظني اني انتقلت الى عالم آخر وانما عليك أن تنتظري حتى تصلك رسالتي واذ ذاك عليك الطاعة أيضا وانني لا أدري كيف

يتم ذلك
تلقيت أوامر نوت هذه فحنيت رأسي ووعيت كلماته في قلبي

* * *

بدأت الحرب بين المصريين والفرس فعزل نختنبت قواده وتولى قيادة جيوشه بنفسه . وقد ساعده الحظ في البداية فأوقع الفرس في كمين نصبه لهم في « براثا » خسروا فيه الوفا عديدة من رجالهم غرقاً أو قتلا ولكن جيشهم كان لا يحصى له عدد . وقد وقف القائد الاغريقي كلينوس ـ الذي شهد المأدبة التي أعطيت في خلالها الى تينس ملك صيدا وشاهدته قتيلا في رؤياي ـ في وجه نيقوستراتس الجبار وقاتله الى أن هلك مع خمسة آلاف جندي من رجاله وبذا تحققت نبوتي

استولى الرعب على قلب فرعون فغادر ساحة القتال وعاد الى منف . واذ ذاك ذاعت اشاعات مختلفة على زحف الفرس . ولم تمض مدة وجيزة حتى جاءت الاميرة أمونارتس الى هيكل ايزيس والتجأت اليه متعمدة أن أوخوس الآثم لن يتعرض لهيكل ايزيس من بين هياكل المعبودات الاخرى في مصر لأنها أم الجميع وعرشها في القمر وزوجها أوزوريس ـ رع وهو أبو النيران التي يعبدها الفرس ، ولأن كاهنتها قدمت اليه خدمة في الحرب وهي كلمات أثارت عجبي

ثم جاءت أمونارتس الاميرة المصرية الى الهيكل ولبست ثوب الكهنوت لكي يحميها اذا جاء أوخوس الى المدينة . على انه اذا كان ثوب الكهنوت قد غير وجهها وجسمها في أعين الناس فانه لم يغير قلبها من الداخل

جاء كالكراتس بعدها قادما من ساحة القتال في الدلتا حيث ابلى بلاء

حساً وقام باعمال جليلة تشهد له بالفروسية والشجاعة . وفى الواقع حيرنى كالكراتس نفسه انه قاتل الجبار نيقوستراتس وجرحه ولكن القتال بينهما لم يصل الى نتيجة حاسمة لان الجنود حالوا دليهما وفرقوا بينهما .

ولما كانت الحرب قد وضعت أوزارها عاد كالكراتس الجندى وصار مرة أخرى كالكراتس الكاهن وارتدى ثياب ايزيس . وعلى ذلك تولى خدمة معى أمام مذبح المعبودة كالكراتس كاهن ايزيس وأموتارتس لاميرة المصرية

فلما جلست أنا ماثلة على مقعد الرئاسة أراقبهما من خلف قناعي أثناء دهن تماثيل المعبودة بالزيت أو اشتراكهما في الحفلات المقدسة وترنيمات الشكر والحمد .وقد لاحظت أثناء مراقبتهما انهما كانا يقتربان كما وكانت هناك قوة سرية تجذبهما معاً ، وانهما كانا ينظران دائما من طرف خفى فتلتقي نظراتهما ثم تفترق ، وان ثوب أحدهما كان - كلما سنحت الفرصة - يحتك بثوب الآخر أو تمس يد أحدهما يد الآخر

لاحظت كل هذه الاشياء فى صمت وسكوت لا أدرى بماذا تجازى المعبودة هذين العاشقين اللذين تجرآ على أن يدنسا معبدها المقدس بشهواتهما الارضيـة . نعم عجبت كثيراً ولو انى لم أفكر طويلا فى ماهية هذا الحكم ولا على يد من قصت يد القدر أن تنفذه فيهما

أخيراً جاء فرعون وقال

ـ لقد جئت طالباً الاحتماء تحت جناحي ايزيس فساعديني يا بنت الحكمة .

فاجبته بسخرية قائلة

ـ اسمع كلمات غريبة من فرعون الذى اعطى هذه الكاهنة تعينها الى ملك شرير من عبدة البعل

فتأوه فرعون وقال

ـ كفى تأنيباً . لقد قلبت الايام لى ظهر المجن كما قد تقدمها لك يوما ما . لقد سارت الاحوال فى مجراها الحسن في البداية فهزمت جيوش الفرس وشيدت المعابد للالهة ولكن حجب القدر عني وجهه. والآن ... والان

ثم حجب القدر عنك وجهه ، أتدري لماذا ؟ لانك لم تخلص للالهة التي شيدت لها الهياكل والمعابد وقدمت الذبائح سراً للبعل وعشتورت وافروديت الاغريقية . كلا لا تنكر لانني أعرف كل شيء ثم اسطيقني لتيذس السفاك الذى قدم ولده ذبيحة للاصنام لكى تختم رداءك هذ على غضب الالهة عليك

زعمت انه سيقتلني لا محالة فلم اكترث لان قلبي كان مثقلا بالآلام والاحزان لاسباب عديدة على انه لم ينل شيئاً من ذلك ... أن أصفح عنه وأن أكف عن سلاته بلساني الماض وأن أسديه النصح والارشاد فاصغيت اليه وقد لان قلبي له ورثى لحالته ثم أجبته قائلة

ـ اصغ الي اي فرعون . اذا وجدك أوخوس هنا سخر منك وعذبك حتى الموت وقد سمعت انه سيأتي بك أمامه ثم يكرهك على ان تقدم قرباناً للنار التي يعبدها ويبصق على تماثيل معبوداتك ثم يلقيك الى العجل ابيس لينطحك حتى يقضي عليك أو يشد وثاقك على مذبح بتاح ويعذبك الى أن تسلم الروح . على انى سأريك طريقاً تنال به مجداً وفخاراً ينتقل ذكره من جيل الى جيل ، فعليك أن تجمع الولائم وشك

وتحشد قواتك في بلاد النوبة الى أن تسمع بموت أوخوس وضعف الفرس واذ ذاك ازحف بجنودك واسترد بلادك وأعد اليها مجدها وفخارها وبهذا العمل تتقي غضب الالهة وتنال رضاها

لمعت عينا فرعون ببريق الكبرياء بعد أن كانتا مغرورقتين بالدموع ثم رفع رأسه بتثاقل كأنه لا يزال يشعر بثقل التاج المزدوج والثعبان الذهبي على رأسه . ونظر بافتخار كما نظر في اليوم الذي سنعرض فيه جيوشه الظافرة في صحا الحبجر بعد انهزام الفرس في امحركة الاولى. ثم انتفخت أوداجه وشمخ بانفه كأنه حوتميس الاكبر أو رعمسيس العظيم في ابان عظمتها ومجدها . أخيراً تمتم قائلا

ـ نعم هذا خير ما استطيع عمله واذ ذاك ربما تصفح عني الالهة التى خنت عهدها ، الالهة القديمة التى حمت أمامي ملوك الاثنين أسرة من ملوك مصر العظام . ولكني أخشى أيتها الكاهنة ـ وهنا عمت وجهه دلائل الكآبة والحزن ثانية ـ أن لا أجرؤ على هذا العمل ـ

ـ ولماذا أي فرعون ؟

ـ لاني عقدت اتفاقاً منذ سنين مضت مع قوة من العالم السفلي أو قولى اذا شئت مع قوة شريرة لا أدري من أين أتت فقد تجسمت أمامي ووعدتني بالفخار والمجد اذا قدمت اليها ذبيحة هي . كلا لا أقول ولكن كان لي ولد مثل تينس ...

فاقشعر جسمي أنا عائشة على انى أردت أن أقف تل كل شيء مرته أن يتكلم فاستطرد في حديثه قائلا

ـ تم الاتفاق بيننا على أن أشيد الهياكل والمعابد ارضاء للشعب ولكن كان علي من جهة أخرى أن أدنس هذه المعابد بوسيلة ما. وقد فعلت

ومع ذلك بقيت معبودة واحدة خارج دائرة الاتفاق لان «شيطاني» انذرني قائلا إنها أقوى منه بأساً وحذرني من اغضابها
ثم أمسكت فسألته قائلة
— هل تعني المعبودة ايزيس ؟
— نعم أيتها الكاهنة ولذا لم أتعرض لها وقدمت اليها وحدها صلاتي . وقد سار كل شيء في مجراه الحسن فحشدت الجيوش وهزمت الفرس في مواقع عديدة وتحالفت مع كثير من الملوك ولم يساورني أقل ريب في قدرتي على كسر الفرس مرة أخرى والاستئثار بذلك العالم الى ان دعت تلك الساعة الملعونة ، ساعة المأدبة التي دعيت اليها أيتها الكاهنة لتعلني نبوتك . ثم كشفت عن ملامحك الفتانة أمام تينس ونسيت ذلك الانذار فاعطيتك لتينس منتهكا بذلك حرمة ايزيس في شخصك .
— ألم احذرك يا فرعون وألم ينذرك نوت القديس ؟
— نعم حذرتني ولكن الحاجة دفعتني الى تجشم الاخطار أوانني نسيت . ولعمري ساءت أحوالي منذ تلك اللحظة وارتكبت غلطة أثر غلطة فوثقت بتينس ولكن تينس خدعني وخانني ثم توليت قيادة جيوشي فانتصرت في المعارك الاولى ولكن الخوف استولى علي فغادرت ساحة القتال وجئت ملتجئاً اليك
فتأثرت نفسي ثانية وأجبته قائلة
— لا تزال الطريق التي رسمتها أمامك . واعلم انه مهما تكن أعمالنا سوداء شريرة فان الندم دائماً مستطاع والا ضاع كل أمل لخاطيء ومن فضائل الندم انه يهذب النفس ويدفعها الى الاصلاح . فاذا ثابر

الانسان على النضال والكفاح متسلقاً الصخور الوعرة ، مجتازاً المستنقعات والوهاد المقفرة تعميه الدموع وظلمة اليأس الموحشة فانه لا بد أن يرى في النهاية شمس الغفران الحلوة وهى تشرق عليه بنورها البهي المقدس الذى لا يماثله نور في العالم فاصغ الى نصيحتى واعمل بها واجمع جيوشك وعسكر بها فى الجنوب الى أن تحين الفرصة

— .... .. كلا : لا تزال لدى ثروة طائلة جمعتها لمكافحة الطوارىء فيها ستطيع أن أجمع حولى جيشاً من الاصدقاء والانصار وأعيش بين الاحباش حتى تتهيأ لى الفرصة لرد ملكى المغتصب .

— اذا كان قد استقر رأيك على السفينة جنوباً أى فرعون فهل لك أن تأخذ معك ابنتك الحسناء الاميرة أمونارتس ؟

فاجابنى بحدة قائلا

— كلا . لانها تسلقنى من وقت الى آخر بلسانها الحاد . فدعيها تمكث هنا خلف ستار ايزيس وفى حماية المعبودة . ولكن لماذا تسأليني ذلك يا سيدتى ؟

— لاجل ايزيس . لان هذه الاميرة على ما اعتقد تداعب كاهناً انذر نفسه للمعبودة ولا أخالك تجهل ان ايزيس تغار على خدامها فلا تطيق أن يترك أحد كهنتها هيكلها اكراما لامرأة فانية

— من هذا الكاهن ؟

— رجل اغريقي يدعي كالكراتس

— نى أعرفه أيتها السيدة فهو رجل جميل مثل ابولو وشجاع كذلك . قام باعمال جليلة فى ساحة القتال حيث نازل قائداً جباراً وجرحه . وكذا اذكر انه كان ضابطاً في حرسي قبل أن يصير كاهناً

وانه وقع فى ورطة لا أدري ما هي غير ان ابنتي امونارتس تشفعت له . والآن اذا كان وجود هذا الكاهن يغضبك فانه لا يزال هناك من ينفذون أوامرى فارسلي في طلبه واذا شئت أمرت بقتله . ن حياته في يديك ولا بد أن يجرى دمه تحت قدميك . ولعمري سأصدر أمرى بقتله فى الحال اذ قلت انه انتهك حرمة المعبودة وأغضبك أنت كاهنتها

ثم رفع يديه ليصفق ويدعو رسل الموت فدفعت يدى بين يديه ومنعته من التصفيق قائلة

ـ كلا . ان هذا الجندى الكاهن من أحسن خدام المعبود فابزيس وقد قاتل دفاعا عني في البحر فلا يجوز قتله لسبب ضعيف كهذا . غير انى اضرع اليك أيها الملك أن تأخذ معك ابنتك الاميرة أمونارتس فى رحلتك الى الجنوب

فاجابنى متألما قائلا

ـ حسن . اذا كانت هذه ارادتك فلتكن وسآخذ الاميرة معي اذا أرادت ولو انه ليس في مرافقتها راحة لى

ثم حيانى باحناء رأسه وانصرف . وكانت هذه آخر مرة وقعت فيها عيناي على وجه تحت نبت فرعون مصر لانى غادرت مصر قبل عودته كما سيأتى ذكر ذلك فى حينه

راقبت فرعون أثناء خروجه وأنا لا أدرى هل أحسنت أم أسأت في الحيلولة دون قتل كالكراتس . وقد خطر ببالى أن موت هذا الرجل سيكفيني شر متاعب عديدة وقلت لماذا لا يموت مثل غيره ممن انتهكوا حرمة المعبودة ؟

القيت على نفسي هذا السؤال فجاءنى الجواب من داخلي قائلا انه

لم يخطىء في حق المعبودة وحدها بل أخطأ فى حقي كذلك بتفضيله امرأة أخري علي فهل بلغ بي الضعف يا تري الي حد أني لا استطيع الثبات في وجه امرأة أخرى اذا شئت؟ كلا ومع ذلك كانت غلطتي اني لم أشأ ذلك

الآن علمت الحقيقة فادركت ان جسدى الثائر يتمنى ما ترفضه الروح . فكانت روحى بعيدة عن هذا الرجل فى حين كان الجسد يريد قربه . نعم كان الجسد يقول : « ليقتل خير من أن تتمتع » امرأة أخري » في حين كان الروح يقول : ما شأني به ؟ دعيه يسر في طريقه وسيري انت في طريقك . ولا تلطخي يديك بدمه قبل كل شيء »

وعلى ذلك تركته يذهب فى طريقه غير عالمة ان يد القدر قضت أن تلطخ يداى بدمه وأن أغوص فيه الى عيني . نعم أنقذته من سيف نخت — نبت وتركته وشأنه مصممة على أن لا أفكر فيه بعد الآن

ولكن خدعتني يد القدر في هذا الامر

جلست في صباح اليوم التالي فى ظلمة المقصورة الحريرية أصلي الى المعبودة وأتوسل اليها أن تخفف عنى أوجاع قلبي المتألم لاني حاولت وأسفاه عبثاً أن أخفف لوعته فلم أستطع . وفيما أنا جالسة دخل على كاهن بلباس أبيض واذا به كالكراتس نفسه ولكنه كان قد تغير كثيراً عن ذاك الجندى الشجاع الذى رد غارة الفرس عن السفينة « هابى » وعن ذاك البطل الذى قاتل نيقوستراتس الجبار . ولا عجب فقد حلق شعر رأسه الذهبي ثانية ونحل جسمه من أكل الفواكه والماء . وهو ما يقتات به الذين أنذروا أنفسهم للمعبودة ايزيس . وكان هذا الطعام يكفيني أنا التي لا أذوق طعاماً آخر ، أو يكفي شيخاً هرما مثل نوت ولكنه كان لا يكفي بلا مراء رجلا مثله قوي البنية قضى حياته في الضرب

والطمأنينة : وفوق ذلك كان يبدو على وجهه دلائل الاضطراب الروحي .
مر كالكراتس بي دون أن يراني ثم سار الى أن جثا أمام تمثال المعبودة
وأخذ يصلي ويتوسل بحرارة طالباً المعونة والمساعدة
أخيراً قام من صلاته ومر بي ثانيـة فلاحظت اذ ذاك ان عينيـه
مغرورقتان بالدموع فاردت تعزيته . وفوق ذلك رأيت انه لا يزال
يلبس الخاتم السحري الذي وضعته في أصبعه على ظهر السفينة
خرج كالـكراتس الى الرحبة الخارجية ذات الاعمدة الى أن انتهى
الى صومعة خرجت منها أمونارتس الاميرة السمراء الجميلة . ولم يكن
من الصعب معرفتها لانها كانت قد نزعت وشاح ايزيس عنها لسبب
لا اعرفه وارتدت ثوباً ملكياً رقيقاً كشف عن كثير من أجزاء جسمها
المليح في حين رأت حول شعرها الاسود الطويل الثعبان الذهبي وفي
جيدها قلائد من الاحجار الكريمة الغالية
قلت في نفسي انهما التقيا على اتفاق ولـكن اخطأت في زعمي هذا
لاني شاهدت كالـكراتس ارتجف فجأة وحاول الفرار ثم غطى عينيه
بيديه كانه يحاول أن يحجب ملاحتها عن ناظريه
رفعت أمونارتس اذ ذاك وجهها اليه كمن يضرع ويتوسل ولما لم
يصغ اليها امسكت يديه وجذبته الى ظل عمود من الاعمدة في الدهليز
حيث مكثا مدة طويلة لان المكان كان مهجوراً في تلك الساعة
أخيراً ظهر الاثنان عند طرف الظل فرأيت الاميرة تطوقه بذراعيها
وقد القت رأسها على صـدره ثم افترقا فاختفت أمونارتس في الظلام
وسارت في سبيلها في حين بقي كالكراتس يروح ويجيء في رحبة الهيكل
وهو يتمتم كمن لا يعي شيئاً

غادرت مكانى ثم جئت اليه وخاطبته قائلة

ـ أراك مضطرب الفكر كاسف البال أيها الكاهن . هل رفضت المعبودة صلاتك وتوسلاتك أو هل مللت الحياة في المعبد وتاقت نفسك الى امتشاق الحسام والضرب والطعان كما فعلت على ظهر تلك السفينة هابى ؟ اذا كان الامر كذلك فليس هذا وقته لان فرعون غادر البلاد الى الجنوب، هذا اذا لم تعمل مثل منتو، وتبيع سيفك لاوحوس ملك الفرس

ـ نعم هو ما تقولين أيتها الكاهنة . فقد ضاع كل شيء وصمت أيضا أنا الذى تلعب بى يد القدر وتدفعنى الى مصير مملوء بالمتاعب والشرور .

ـ تكلم اذا شئت أيها الكاهن أو الزم الصمت اذا أردت لان الكاهنة لا تبوح لاحد بسر الا للدم وحده،

ثم تحولت وعدت الى ظلال المقصورة واتكأت الى عمود ... عليه على ما اذكر صورة المعبود نوت وهو يزن القلوب أمام المعبود أوزيريس . وهنا انتظرت وانا لا ادرى هل يتبعنى كالكراتس أو يسير فى سبيله

وقف كالكراتس مترددا هنيهة ثم التحق بي وخاطبنى بصوت مبحوح قائلا

ـ ايتها الكاهنة ، اخاطبك الآن فى ظل المعبودة ايزيس . عالما ان اعترافي هذا لا يفشى.ومع ذلك أرى من الصعب التكلم لان الامر يتعلق باميرة وبك أيضا أيتها الكاهنه القديسة

ـ تكلم أيها الكاهن ولا تخش شيئا

ـ اعلمي اني عشقت في السنين الماضية اميرة لا اخالك تجهلينها .
والظاهر انها عشقتني كذلك . وقد افضى غرامنا هذا الى قتل أخي
وتلطيخ يدي بدمه كما تعلمين وأخيراً هرعت ملتجئاً الى المعبودة طالبا
الصفح والغفران . واظن ان داخلي في نفسين : نفس تتعلق بالروح
والاخرى بالجسد

فتنهدت وأجبته قائلة

ـ هذه حال كل مخلوق تحت الشمس

ـ خلقت جنديا مولعاً بالقتال جميل الوجه ولو انه لا يخطر هذا ببال
أحد اذا رآني الآن في ثياب الكهنوت هذه

فتبسمت قليلا وقلت

ـ رأيتك لا بساً عدة الحرب والكفاح ومن السهل معرفة أصلك

ـ أتيت بما يأتيه الجمود من الفعال فشربت الراح وتمتعت بضروب
الانس والطرب وجثوت لافروديت وهمت بحب النساء وقاتلت بشجاعة
واقدام وأخيراً تاقت نفسي الى المعالي فالتحقت مع أخي بخدمة فرعون
ولا ريب في انك تعرفين ما حدث بعد ذلك

حنيت رأسي علامة الايجاب فاستطرد في حديثه قائلا :

ـ ذهبت الى « فيلي » واعترفت بجميع خطاياي وقطعت العهود
الاولى وذهب بي الكهنة في ساعة معينة من الليل الى المقصورة الداخلية
لكي أرى المعبودة ثم غادروني فرأيت شبحها يتوهج في الظلام
بصورة بديعة

ارتجف جسمي اذ ذاك وأخذت أراقبه بشدة من خلف قناعي
لاقف على مبلغ علمه في حين استطرد في حديثه قائلا

ـ استولت علي قوة اذ ذاك وشعرت كأنما عادت الي ذكري بعيدة، ذكري ووعد . وقد حملتني تلك القوة التي تملكتني الى احناء رأسي لكي اقبل شبح المعبودة وانذر لها روحي . وقد مال الشبح برأسه كذلك فالتقت شفتاي بشفتيها ويا عجبا كانت شفتاها كشفتي امرأة من البشر ولكنهما أحلى وأجمل

ـ ن المعبودة مصورة جميع الاشكال أيها الكاهن ،ولكن لاتظن انها نسيت العهد الذي قطعته معك على هذه الحال . واعلم انك انذرت نفسك لها منذ تلك اللحظة ولا ريب في انها ستطالب بك يوما ما اذا بقيت مخلصاً لها محافظاً على عهدها

فاستطرد في حديثه قائلا

ـ مرت السنون فبقيت حافظاً لعهدي الى أن ساقتني يد القدر الى هنا فى منف فوقعت عيناي عليك هنا في الهيكل أيتها الكاهنة واذ ذاك تعلمت ان اعبدك من بعيد لا بالجسد بل بالروح لانك في عيني كما يسميك عامة الناس : « ازيس على الارض »وكلما وقعت عيني عليك اذكر تلك الرؤيا المقدسة التى مست شفتاها شفتي داخل المقصورة في فيلي . فترين انى اعبدك بالروح ولو ان ذلك لم يخطر لك ببال من قبل .

لزمت انا عائشة الصمت وملت الى العمود لان قواي خارت وتملكني الضعف حتى كدت اسقط على الارض ، ومع ذلك لم ابد اية حركة يمكن أن يفهم منها انى كنت تلك الكاهنة التى لعبت دور ازيس في مقصورة الهيكل في جزيرة فيلي .أخيراً قلت

ـ هذا حسن . لا ريب فى ان المعبودة ستشكرك في الساعة المعينة

ولكن مما تشكو أيها الكاهن ؟ ليس من الاجرام أن تحب المعبودة بالروح .

ـ نعم ولكن ما قولك يا سيدتي اذا كان الرجل الذي أحب المعبودة بالروح واندر نفسه لها وحدها الى الابد ـ يعشق امرأة أخرى بعد ، وبذا يكون قد خان عهد السماء وعهد نفسه في وقت واحد ؟

فاجبته بصوت خافت قائلة

ـ اذن اخشى أيها الكاهن أن يكون الامل بخلاصك ضعيفاً ولكن اعلم أن المغفرة لا تمسك عن كل ما تاب وأناب فعليك يجب أن تبادر الى التوبة ما دام هناك وقت

فتنهد كالكراتس وقال

ـ هذا حكم قوله سهل وتنفيذه صعب أو هذا على الاقل مأقول في رجل وقع في شرك غرام امرأة لا يمكن أن ينكر حبها ؛ امرأة تمسك قلبه في راحة يدها وتعصره عصراً ، امرأة بريق عينيها كالنجم يهدي الضال في الظلام ، امرأة أنفاسها كالطيب وشفتاها كالشهد . امرأة قطعت لها العهود المقدسة . ان المعبودة بعيدة عن العين أما المرأة فقريبة منا دائماً وفوق ذلك اتفقت الآراء بين الرجال على ان العهود التي تقطع بالشفة لا تنقض لفائدة الروح

ـ هذه حجج قديمة يتردد صداها من وقت لآخر بين جدران هيا كل افروديت ولكن ايزيس لا تعرفها . لقد اعطى الجسد للانسان لكي يتعلم كيف يحتقره ويطأه تحت قدميه ، ثم اعطيت له الروح لكي يتعلم كيف يصعد الى السماء علي أجنحتها . فالويل للذين يختارون الجسد وينبذون الروح . أقول ان الندم لا يزال ممكناً وسيأتي الاصلاح

بعد الندم ، وبعد الاصلاح الصفح والغفران

اطرق كالكراتس هنيهة ثم قال

— لقد ندمت أيتها الكاهنة على ما فرط مني لانني أود قبل كل شيء آخر في العالم أن أصل الى تلك النهاية التي طالما طلبتها في ساحات القتال وافوز بها الانضمام الى المعبودة التي تمثلت أمامي في شكل القديسة التي رأيتها في مقصورة الهيكل في فيلي . نعم أريد الالتحاق بها دون سواها . ولكن من أين لي الاصلاح أنا الذي أشبه شيء بأسد وقع في شرك نسجت خيوطه من شعر امرأة ؟

نظرت اذ ذاك اليه نظرة فاحص مدقق فرأيت انه لم يفه بغير الصدق وعلى ذلك أجبته قائلة

— ان العصفور الحكيم يطير بعيداً عن الشرك الذي يراه منصوباً في طريقه . سيحضر [illegible] غداً [illegible] ليقابل بعض رسل الفرس الذي يتفق معهم على حماية الهيكل وصيانته فهل لك في مرافقته دون أن تبوح لأحد بشيء من غرضه وغرضك ؟ اذا عملت بمشورتي هذه فستجد في النهاية تلك المعبودة التي التقت شفتاها بشفتيك في فيلي هنا — أو في مكان آخر

فكر الكاهن طويلا ثم تمتم قائلا

— من الصعب بل من [illegible] أن أقوم بهذا [illegible] ومع ذلك سأسافر معه ، أنا الذي [illegible] لا [illegible]

وبعد أن [illegible] ذهبت [illegible] وسارت

— [illegible]

من ظل الى ظل فلم اكترث بها على زعم انها احدي الكاهنات اللاتي يقدن براقصة المقصورة في مثل هذه الساعة وكذا لم يرها كالكراتس أو يكترث بها لانه كان سابحاً في لجة عميقة من الافكار

الفصل الرابع عشر

اغراء باغوس

جاءني توت تلك الليلة فودعني قائلا

— سأسافر شمالا كما أمرت لعلي احفظ هياكلنا والذين يتولون الخدمة فيها . ولا أدرى هل أعود ولا متى أعود وعلى ذلك يحز في أى ابنتي في الروح أن أفارقك في هذا الوقت العصيب . على ان الاوامر التى تلقيتها تحتم على السفر منفرداً وتقضي ببقائك هنا .. ولتعزيتك اقول انه لن يصيبك أذى كما اخبرتك من قبل وانما سنلتقي مرة أخرى بالجسد ولو طال الامد وعلى ذلك انتظرى الى أن تأتيك كلمتى

فحنيت رأسى اذعاناً لامره ثم سألته هل يرافقه أحد فأجابنى قائلا

— كلا يا ابنتي وانما سيرافقنى بعض الرفاق بينهم كالكراتس الاغريقى الذي طلب الي ان اسمح له بمرافقتى . ولما كان من رجال الحرب كما تعلمين فقد يكون ذا فائدة في مثل هذه المهمة ولا أدري من أين علم بنبأ سفرى هذا

ثم نظر الي نظرة ملؤها الشك والارتياب فأجبته قائلة

— أنا التي اخبرته ولا تسألنى المزيد يا أبت

فتبسم الشيخ وقال

— لا حاجة تدعونى لى سؤالك على ما أعتقد . قد يهمك أن تعلمى ان نرسون قرر السفر جنوباً في الغد وقد شحن را سفينته بكنز ثمين سينفقه في تعزيز قواته واستمالة حلفاءه

— ليجد فرعون عزاءه فى منفاه بين الاحباش

— ولكن كيف يلقي فرعون الآلهة ويداه مخضبتان بالدماء ؟

— لا أدري يا سيدي ولكن الم تكتب يد القدر السقوط على الخاطئين ؟ وهل تغضب الآلهة من الاداة التي تستخدمها ؟

فاطرق نوت هنيهة ثم هز رأسه وقال

ـ القى هذا السؤال على أبى الهول الذى يجلس هناك وسط الرمال بجانب اهرامات الملوك السابقين يفكر كآبة ولوذ فى خرائبهم ، فى أسرار الارض والسماء ، أو القى هذا السؤال على مومياء بعد مئة دورة الجسد فربما فسر لك أحد الآلهة لغز العالم أما هنا على الارض فلا يمكن تفسيره لان من يستطيع قراءته يكون في مصاف الآلهة . لا بد من اقتراف الخطيئة يا ابنى ولا مندوحة من وجود خاطئين ، ولكن مافائدة الخطيئة ؟ لاأدرى ، هذا اذا لم يتولد منها الصلاح و الهداية . ولعمرى فى وسع الخاطىء أن يقول معتذراً انه ليس الا سهما فى قوس القدر وان السهم يجب أن ينطلق الى الهدف الذى يصوبه اليه الرامى ولو شرب هذا السهم من دماء بريئة ، فيهم أطفالا وحمل نساء

ـ ولكن لنا أن نقول يا أبت ان هذا السهم ـ أو بالحري هذا الخاطىء ـ صنع نفسه لسفك الدماء والقتل وانه انتقي الخشب وصهر السنان وجهز النصال بريش الاغراض مع انه كان فى وسعه ـ اذا وقع اختياره على أمر آخر ـ ان يترك الشجرة التى صنع منها قوسه فتحمل ثمراً أو يصنع منها عكازاً يتوكأ عليه العجزة أو عصا المجد لة يحملها الملوك .

فتبسم نوت ابتسامة رقيقة وقال

ـ انك حكيمة يا مائمة ولعمري لم أثقف عقلك واريك عبثا ومع ذلك أوصيك مرة أخرى ان تحملي هذا اللغز اذا ما غابت شمس حياتك الى أبي الهول الذي يفكر في السماء فوقنا وعلى الارض تحتنا وفي صدر كل طفل يولد لكي تقفي على جوابه

نطق نوت بهذه الكلمات ثم أشار بيده دليلا على انتهاء البحث والمناقشة . على انني لم انس ما دار بيننا من الحديث وكم القيت هذا السؤال أو بالحرى هذا اللغز على أبي الهول الرابض في صدري وانتظرت جوابه وذلك كلما شعرت أو زعمت بأن شمس حياتي أوشكت على الغروب لانني والأسفاه لست خيراً من تحت ـ نبت لانه اذا كان فرعون خان عهد الالهة افلم اخن عهدها ايضاً انا التي تقربت اليها أكثر منه؟ واذا كان قد سفك الدماء ارضاء لغضبه وشهواته افلم اسفك الدماء كذلك ـ وربما سفكت دماء أخرى قبل أن تأتي النهاية ـ عند ما تملكتني روح الرغبة التي لا تقهر ؟ واذا كان قد فر الى الجنوب حاملا ثروة مصر افلم افر انا الاخرى حاملة الكنوز التي منحتها ـ من تيجان حكمتي الغالية وتلال معارفي الذهبية ، وتمثال ملاحتي المصنوع من المرمر وعطر قوتي وبلاغتي ثم أيامي الطويلة التي كان في مقدوري استخدامها في صلاح العالم ومنحه الطمأنينة والسلام

نعم ألم افر ، أنا م أثمة ، بجميع هذه الكنوز الغالية في صدري فبددتها في الصحراء القاحلة ؟ الم اقترف كل ذلك لاجل غاية اردتها ثم ألم افر بغايتي مدار العالم عدوي الالد ، ولكن هل ألام على ذلك كله ؟ وهل يلام ذلك الرجل الاعمى الذي لم يستطع أن يري معبوده لاعمى الجهل الذي كان في قبضة يده قادر بعمله هذا ثائرة

جنوني ؟ وهل تلام أيضاً تلك المرأة التي اعمت تينك العينين بالعلوم التي تعلمتها من آلهة الشر ؟

أواه ! لا ادري . ربما في وسعها أيضاً ربوبا قصة أخرى أمام كرسي العدالة لا استطيع الاجابة عليها لانهما كذلك صنعا سويهما من خشب الظروف الذي نحت شجرته فيما وراء العالم . لقد اقتربت أمنيتي مني ثانية . انها تتألق مثل فاكهة نضرة فوق شجرة الحياة وقد مددت اليها يدي لقطفها . نعم اني أقف الآن على أطراف أصابعي فكدت أمسها بأناملي ولكن من يدري اذا تبين فسادها ؟ وما العمل اذا تحولت الى تراب وتهدمت من حرارة شمس حياتي قبل ان تمسها أصابع يدي التي لا تموت ؟

اواه ! ان [illegible] يشتغل بصيد [illegible] فوق [illegible]
واتي التي تسمى [illegible] تجلس [illegible] في « مدينة السموات » [illegible]
كم دتها لي [illegible] لتنقضي [illegible] يذكر اني
الهول على [illegible]
[illegible] عن الاجابة [illegible] أذنت
[illegible]

— [illegible] أمونا [illegible] ؟ علمي [illegible] هذه المرأة

— نعم يا ابنتي لا [illegible] على ذلك و [illegible] الهيكل [illegible]
من [illegible] . ولكن حتى [illegible] فانها ستبحر غداً

— الى أين ؟

— كلا . [illegible] أبيها [illegible] أو هذا ما اخبرتني [illegible]

أنها ستجعل مصيره مصيرها فاما أن يحكما معاً أو يسقطا معاً

ـ هذا حسن

خضنا بعد ذلك فى أحاديث أخرى تتعلق بهيكل المعبودة واخفاء كنوزها مخافة أن يستولى الفرس عليها . ولما انتهى حديثنا قام نوت وباركني ودعا القوى العليا أن تحفظني وتحميني ثم سار في طريقه الى السفينة « [illegible] » دون أن تخطر ببالي انه ستمضي أعوام طويلة قبل أن أراه ثانيه

تدافع جيش الفرس مثل السيل فلم يبق ولم يذر وانتهك [illegible] حرمة المعابد وعذب الكهنة وأكرههم على أن [illegible] على [illegible] ويقدموا القرابين لآلهته وتهددهم بالقتل والتعذيب وقد أشفقت من هذه الأعمال [illegible] للآلهة [illegible] أن توقف [illegible] أن [illegible] ولعمري [illegible]

أخيراً جاء [illegible] المدينة العتيقة [illegible]

[illegible] المعبود [illegible] للعجل ابيس [illegible] الموقد وجاء [illegible] واكلوا من لحمه ثم [illegible] « أرأيت [illegible] معبود؟ » .

ارتكب الفرس اعمالا اخرى شنيعة غير هذه لا أريد ذكرها

وكنت أراقب عمالهم هذه ولا أقول بدون خوف لأنى في الواقع شعرت بالخوف يتسرب الى قلبي ومع ذلك كنت أشعر فى داخلى بروح الكبرياء تأمرنى أن أخمد جذوة هذا الخوف . وكذا كانت تشتعل فى صدرى نار الايمان التى كان نورها هاديا لى دائما فى ظلمات اليأس والقنوط . لقد أخبرنى نوت أنه لم يمسنى ولا الذين معي أذى وتوت لا يكذب وفوق ذلك كنت أسمع أثناء صلاتى في الليل صوتا عميقا يناديني أن لا تخاف لأن هناك قوات غير منظورة تدافع عنى وتحمينى

وهكذا جلست داخل الهيكل وحيدة لا انصار لى ولا معين ، شجع اولئك الكهنة والكاهنات الذين يعملون معى وقد استمرت العبادة سائرة فى الهيكل كالعادة فكان خدام المعبودة يأتون كل صباح بأنواع الطيب والعطر وتقدم القرابين وتسير مواكب الكهنة والكاهنات فى أفنية الهيكل وهم يرتلون الاغانى المقدسة

وصلت هذه الاعمال الى مسامع الفرس فاحتشدوا خارج الابواب وقد تولاهم الدهشة قائلين :

— من هؤلاء الذين لا يخافون ؟

هل انهم لم يخرجوا مع أن شبح الموت كان يحملق في وجوهنا فى كل ساعة وحين

أخيرا وصلت هذه القصة الى مسامع اوخوس نفسه فجاء الى زيارة الهيكل مدفوعا بما تولاه من العجب والدهشة . فاستقبلته فى القاعة الكبرى حيث جلست مقنعة فى كرسى الرئاسة تحت قدمى المعبودة ايزيس . وكان برفقته لفيف من كبار وزرائه وحاشيته يرتدون ثيابا حريرية تفوح منه رائحة الطيب . وقد شاهدت بينهم القائد الاغريقى

ستور الذي عرفته في صيدا قبل أن يخون أهلها وينضم برجاله الى الفرس . وفوق ذلك رأيت باغوس الخصي والوزير الاكبر لملك الملوك والقائد العام لجيوشه . وكان مثل غيره من هؤلاء التعساء غليظ الجسم وضيع الصوت ناعم البشرة يحرك يديه عند الكلام .

وكان باغوس هذا مصرى المولد فخطرت ببالي فكرة صائبة فقلت هل رضي مصرى أن يرى هيكل ايزيس يهدم وكهنتها يقضى عليهم ربما لم يكن من عابدي بتاح او ابيس ولكنه يحل بلا مراء المعبودة ايزيس كجميع المصريين . ومع ذلك من يدري؟ انهم يقولون ان باغوس هذا رجل ماكر ، وصل الى مركزه هذا بفضل ما ارتكبه من الجرائم فمثل هذا الرجل الذي لا يهمه غير نفسه قد ينسي ايزيس وغضبها .

وقف اوخوس أمامي ، مدلى الشفتين قاسى الوجه ، تنم عيناه على الكبرياء والارتياح في وقت واحد وهى حال القتلة الذين لا يرتابون في انه سيأتى يوم فيه يقتلون كذلك . فحنيت له رأسي تحية والقيت عليه وهو لا يدرى لعنة ايزيس من خلف قناعي

أشار اوخوس الي بصولجانه ثم قال بصوت غليظ وهو ثمل :

ــ ما هذا ؟ هل هذه احدى الجثث الملفوفة التي أخرجناها من قبورها واستعملناها وقوداً لطبخ المعبود ابيس ؟ كلا . لأني أراها تتحرك واسمعها تتكلم وشكلها شكل امرأة . تقدم يا باغوس وجرد هذه المخلوقة من قناعها لكي نرى هل هي امرأة واذا كانت كذلك فما شكلها .

فلما سمعت أنا عائشة قوله هذا عادت الي جرأتي فوقى المفقودة كما هي عادتي اذا ما أحدقت بي الاخطار وفى الحال وضعت خطتي وكانت

وجيزة بسيطة وهي : اذا تقدم هذا الخصي مني جردت خنجري المدلى في منطقتي وهو الخنجر العربي المقوس الذي كان يحمله أبي من قبلي ثم ادفنه في قلب ذاك الملك وارسله الى ايزيس ليقدم حسابه اليها وبعدها أدفنه في صدر باغوس ثم في صدري اذا تطلب الامر. ولعمري آثرت هذا العمل الخطير على أن اكون سخرية في أعين هؤلاء البرابرة .

لم افه بكلمة ومع ذلك يظهر أنه خرجت مني روح انذرت الرجلين بعاقبة عملها وعلى كل حال رأيت باغوس خر على ركبتيه وسجد أمام أوخوس وتوسل اليه قائلا

ـ اضرع اليك أي مولاي الملوك ان تمتنع عن هذا العمل . ان هذه السيدة المقنعة هي كاهنة الملكة ايزيس ملكة الارض والسماء فمسها محرم وعمل دنس يجلب الهلاك في العالم والعذاب الابدي في الآخرة

ضحك اوخوس من قوله هذا بوحشية ثم تحول الى القائد الاغريقي وسأله قائلا

ـ ما قولك يا فنوريا بن ... هل هناك ما يمنعنا من تجريد هذه الكاهنة الى ما تخفيه ثيابها ؟

ففرك ... وجبينه وقال :

ـ لما القيت على هذا السؤال أي ملك الملوك ذكرتني بأمر واقع . لقد أخذ تينس ملك صيدا ... كاهنة ... من ... وقد أراد ان يجردها من ثيابها فكانت نهايته مروعة كما تعلم . وعلى ذلك اذ سألتني رأيي فاني أفضل ان تدع هذه الكاهنة مقنعة لأنها ليست على ما يعتقده الاغريق شيطاء . لا اعرف شيئاً كثيراً عن ايزيس ومع ذلك أعرف أنها معبودة ذات اسم عظيم في الحكمة إذ لا نستهين ب

لغضبها . لكي نكشف عن وجه امرأة ذميمة الخلقة

نطق منتور بهــذه الاقوال المملوءة مكرا وخداعا فاخذ اوخرس يصغي اليه وقد هدأت حالته فجأة ثم قال

ـ اذكر ان هذه الكاهنة قدمت الي خدمة جليلة هناك في صيدا فقادت تيلس الكاب بارائها الى الهلاك وعلى ذلك سأتركها وشأنهـا لا اكراما لآلهة مصر التي احتقرها ثم بصق على التمثال ـ ولا عمـلا بارائكم الـ[illegible] بل لاجل خدمتها لي في صيدا . ثم آمر أيضاً ان لا يحرق هذا الهيكل الجميل ولا يمسه أحد بسوء وان يبقى الذين يعيشون فيه ولهم ان يقوموا بعباداتهم الجنونية كما يريدون على شرط أن لا يتجاوزوا اسواره ولا يختلطوا بالناس في الشوارع . وتصديقا لقولي هـذا [illegible] صولجاني

ثم [illegible] غرس [illegible] ذلك مددت ذراعي من بين طيات الثوب [illegible] ذكرت أنه كان من الحكمة ان [illegible] من تحت [illegible]

لاحظ اوخرس في لمح البصر جمال الذراع التي مدتها فصرخ وصاح قائلا

ـ ليست هذه [illegible] وحق النار المقدسة ذراع عجوز شمطاء كما قلتم أيها العبيد بل هي ذراع امرأة جميلة [illegible] لو وقعت عيناي على هذه الملامح من قبل لأثرت [illegible] . حقا . .

فقاطعته بروده قائلة

ـ لقد [illegible] صولجان الملك [illegible] لا يجوز الرجوع عن [illegible]

فقال اوخوس

ـ اراها حكيمة كذلك لانها تعرف عادات ملوك الفرس صدقت.
ـ لست الصولجان فما صدرت به ارادتى لا يمكن تغييره. انظروا أيها الجهلاء كيف يمكن الانسان ان يتخذ من حكمته درعا منيعة. تعال يامنتور معى الى القصر لنقضي ليلتنا فى ابتهاج مع كاهنات آمون الجميلات أما انت ياباغوس فابق هنا وابحث عما اذا كان لدي ايزيس هذه حلى تؤخذ. في الملتقى أيتها الكاهنة . استخدمي حكمتك وثابرى على لبس قناعك لانه اذا كان جسمك جميلا مثل ذراعك فقد تلعب الخمر برأسي أو برأس غيرى فانسى عهودي فى النهاية واصدر أمرى بنزع قناعك
تحول الملك وسار يتبعه رجال حاشيته الاشرار ولم يبق غير باغوس لتنفيذ لامر اوخوس فلما اغلقت الا بواب وعلمت من صياح الناس في الخارج ان الفرس ابتعدوا عن الهيكل تحولت الى باغوس وكنا منفردين وخاطبته قائلة
ـ اخبرنى ايها المصرى يامن تربيت تحت جناحي ايزيس ، ألست سالماً ؟
ثم اومأت برأسي الى بصقة اوخوس على تمثال المعبودة فاجابنى قائلا
ـ نعم انى خائف مثلك منذ هنيهة
فقلت ساخرة
ـ يالك من أحمق . لم أكن خائفة . ولعمري لو مددت يدك لاصابك الهلاك فى الحال ولاصاب ملكك كذلك ـ ولا تسألني كيف ـ ولارسلت روحيكما الى الربانية في العالم السفلى . ألم تسمع أيها الخصى عن لعنة ايزيس ؟ هل تزعم ان قوتك وسلطتك تحميانك من سيفها القاطع ؟ لا ن . ثم الآن لو سألتها ان تحطم اسرتك حيث انت

اضطرب باغوس وخر على ركبتيه . نعم جثا قاتل الملوك هذا على ركبتيه امامي انا الكاهنة المقنعة داخل هيكل معبودتي واخذ يضرع الي ويتوسل ان اعفو عنه واحميه من غضب السماء . ولا عجب فقد كان باغوس مصرياً بالروح لايزال دم اجداده المصريين الذين عبدوا ايزيس اكثر من الفي عام ، يجري في عروقه حاراً

اجبته على توسلاته قائلة

ـ اتطلب ان اعفو عنك واحميك ؛ اظن ان طلبك هذا يجب ان يشترى بثمن غال ياباغوس هل اكلت لحم ابيس وسقت عذارى آمون من هياكلهن ؟ هل اشتركت مع الذين وضعوا حماراً فى معبد بتاح بدل العجل المقدس ؟ وهل كنت مع الذين ذبحوا الكهنة على مذبح الهيا كل ؟

فضرب صدره بيده وقال

ـ نعم وا أسفاه . ولكن لم أعمل ذلك طوع ارادتي بل اقترفت ما اقترفت مهدداً بالموت

ـ قد يكون ذلك ، عليك أن تعقد الصلح مع الآلهة التى انتهكتم حرمتها ولكن ماذا تقدم من التكفير الى هذه المعبودة ؟

ثم اشرت مرة أخري الى بصقة اوغوس الخبيثة ، فاجابني قائلا

ـ هذا ماأريد معرفته منك فاي تكفير تريدين ياسيدتي ؟ سأقسم بان ليست هنا مجوهرات وان المعبودة تزين فقط بالازهار والطيب وسأحرس هذا الهيكل فلا تطأه بعد الآن قدم فارسي . وسأقتل كل من يمضك أو يمسك بأذى . هل هذا كفاية ؟

ـ كلا . ولا جزء من مئة . نعم تريد أن تحمى هيكل المعبودة . ولكن ماذا تنتقم من الرجل الذي دنس تمثالها ببصقته ؟ تريد أن تحمي

الكاهنة ولكن بماذا تنتقم ممن أراد أن يجردها من ثيابها ويتخذها تسلية له ولرجاله الاشرار ؟ اذا كان هـذا كل ما تستطيع أن تقدمه يا باغوس فاحمل لعنة الام ولعنة خادمتها واذهب الى الجحيم

رفع باغوس اذ ذاك يده الى رأسه كأنما أراد أن يقي بها اللعنة ثم أخذ يحتج ولكني لم اكترث بقوله واستطردت في حديثي قائلة

ـ لا تعجل . وتلكأ ما شئت في الطريق . تزين بالثياب الموشاة بالحرير كالنساء وادهن جسمك بالطيب وضع السلاسل الذهبية في عنقك والجواهر الثمينة في اصابعك . انظر الى الملذات التي لا تستطيع التمتع بها وخذ نصيبك من الذهب والولايات . دس السم لمن تبغضهم وانتزع ارواح الاطفال الابرياء الذين يقفون حجر عثرة بينك وبين ما تريد .

غذ جسمك الغليظ بما تشتهي من الطعام واطمع فيما شئت من الجاه والسلطة ثم مت يا باغوس بعدها ، مت بعد عام أو عشرة أعوام أو خمسين عاماً واذهب الى أسفل سافلين وانظر الى المعبودة التي انتهكت حرمتها والتي عبدها اجدادك من البداية ، ثم انتظر قدوم كاهنتها لكي تقدم حسابك الاسود في قاعة المحاكمة

ـ ما العمل اذن ؟ ماذا أعمل لكي انقذ روحي من الهلاك ؟ اعلمي ياسيدتي اني أريد انقاذ روحي وأن الاشياء التي ذكرتها الآن ليست الا أموراً تافهة في عيني بعد أن حرمت من النساء والاولاد . ثم اعلمي اني أفخر كل الفخر اذا وطئت قدماي اعناق كل هؤلاء العظماء نعم حتى عنق ملك الملوك الذي نسي أنه تقدمه ملوك كانوا اعظم منه شأناً وسلطاناً ، فاخبريني ـ ماذا يجب أن افعل ؟

اخرجت خنجري المغروس من غمده خفية ، وخفية جرحت ذراعي

دون أن يلاحظ الخصي شيئاً . نعم وكان الجرح عميقاً اذ لايزال أثره ظاهراً الى اليوم فسال الدم وخضب قناعي . وكانت لطخة صغيرة في البداية ولكنها أخـذت تزداد شيئا فشيئا الى أن نظر الرجل اليها مبهوتاً وقال :

ـ دم ! دم من ؟

ـ ربما دم المعبودة الجريحة ، أو ربمـا دم الـكاهنة المهانة ، ما ذا يعنيك يا باغوس ؟

استطرد الرجل فى حديثه قائلا :

ـ دم . ما ذا يطلب الدم ؟

ـ ربما يصرخ الى السماء طالبا الانتقام ، ربما يطلب أن يغسل بدم آخر يا باغوس . من انا حتى افسر مثل هذه الالغاز .

ادرك الخصى معنى قولى فوقف يتعثر على قدميـه ثم مال نحوي وأخذ يهمس فى اذنى قائلا :

ـ لقد فهمت . ثقى بأنه سيتم لك ما تريدين ولـكن لم يحن الوقت بعد . ومع ذلك أقسم بأنه سيتم متى حانت الساعة الملائمة . انني أمقته أقول انني أمقت ذلك الرجل الذى يسبغ نعمه علي فى حين يسخر مني فى قلبه ويهزأ بى بلسانه ، والذى كلما أصاب نصراً على يدي سخر وقال لجنوده انهم نالوا هـذا النصر على يد مخلوق ليس برجل ولا بامرأة . نعم أمقت هذا الرجل الذي أرغمني وهو يعلم انني مصري ، على تدنيس الهياكل وقتل كهنتها . انى أقسم أن يتم ذلك فى حينه .

ـ بماذا تقسم يا باغوس ؟

ـ أقسم بهذا ايتها الـكاهنة .

ثم رفع القناع ومسح شفتيه وجبينه بلطخة الدم وعاد فقال

ـ اقسم بدم ايزيس او بدم كاهنتها وخادمتها التي يجرى دمها فى عروقها ان لا اعرف معنى للراحة حتى اذيق اوخوس كاس الموت قد تنقضى اعوام ولكن لن يهدا لى بال حتي اسقيه كاس الردى ولكن بثمن .

فسألته قائلة

بأي ثمن ؟

ـ الغفران الذى في وسعك أن تعطيه

ـ نعم فى وسعى ان اعطيه أو امسكه . ومع ذلك لا اعطيك هذه المنحة يا باغوس حتي أرى باخوس ميتاً بيدك فعندئذ فقط ـ لا قبل ذلك ـ اسأل لك الغفران من السماء

ـ فى وسعك على الاقل أن تحميني الى أن تحين تلك الساعة أى كاهنة ملكة السماء

أخذت طلسما معيناً من قلادتى التى البسها تحت قناعي وهو رمز سرى للقوة يمثل ايزيس ولا يعرفه الا الكهنة فنفخت فيه وباركته ثم قلت

ـ خذ هذا واحمله على صدرك فانه يحميك من كل شر ما دام قلبك صادقا نقياً . أما اذا تحول قلبك عن غرضه أو اذا فشل في تنفيذغايته فان هذا الرمز المقدس سيجلب على رأسك جميع الشرور في هذا العالم وما وراءه يا باغوس . اخذه واذهب ولا تعد الى ثانية حتى تأتى وتخبرنى ان أوخوس سار فى الطريق التى دفع اليها أقدام كثيرين

أخذ باغوس الطلسم فوضعه على جبينه كانه خاتم ملك الملوك ثم

اخفاه بين طيات ثيابه وسجد أمامي ومس بجبينه الارض تحت قدمي وأنا جالسة على كرسي المعبودة ثم قام وحني رأسه دون أن ينبس بكلمة وأخذ يتقهقر الى أن اجتاز الابواب واختفى عن عيني

***

لما ذهب الجندي ضحكت ، انا عائدة ابتهاجا بالدور العظيم الذى لعبته ... فيه هذا الفوز الباهر

نعم ضحكت ثم طهرت تمثال المعبود وحرقت أمامها البخور ودهنتها بالعطر ثم جثوت وقمت فروض الشكر والحمد الى تلك القوة العادلة في السماء

الفصل الخامس عشر

الدسيسة

مرت السنون المملوءة بالملل فعاد أوخوس الى بلاده وخلف أحد رجاله ساباكو ، والياً على البلاد

قضيت أنا طائفة كل هذه المدة الطويلة وحيدة منفردة فى هيكل ايزيس بممف فلم أغادر جدرانه يوماً ما عملا بأمر أوخوس وقد بقى معبد ايزيس سليما بالرغم مما أصاب هيا كل المعبودات الاخرى . وعلى ذلك تبت مع الكهنه والكاهنات انتظر كلمة سيدى نوت التي لم تأت بعد . تقوم بطقوسنا الدينية

قضيت هذه السنين المملة الطويلة في مناجاة الارواح والاحلام وتعلم لغة المصريين القديمة وغيرهم من الامم الاخرى فازددت حكمة وعلماً مثل اناء مملوء بالعطر أو الطيب . ومع ذلك ما فائدة هذه المعرفة دائماً هي لا شيء على ما يظهر . ولكن ليس الامر كذلك لان قلبي كان يتغذى بها كما تتغذى النحلة مما تدخره من الشهد فى فصل الشتاء ولولاه لمت كما تموت النحلة . وفوق ذلك علمت الآن ان هذه السنين التى قضيتها لم تكن الا تمهيداً للاجيال الطويلة التى كتب على أن اقضيها فيما بعد بين كهوف حور

على هذه الحال مكثت السنين الطوال منسية من العالم افكر وأخمن ضروب الوحشة أنا التي فكرت فى ان ابسط سلطانى على العالم ثلث شهراً بعد آخر بين جدران هذا الهيكل ، متذرعة بالصبر

واثقة ان الساعة المعينة لا بد أن تحين في النهاية

لم اسمع شيئاً عن نخت ـ نبت غير انه سافر للقيام بمهمته ، ولم اسمع شيئاً عن ابنته أمونارتس التي سافرت معه على ما اعتقد وكذا لم اسمع شيئاً عن كالكراتس الجندي الكاهن الذي ربما مات وتلاشى جماله معه كما ستذهب ملاحتي يوما ما ، وهي فكرة اقشعر لها بدني

كم حرت في أمر هذا الرجل وعجبت لماذا تتحرك له روحي دون سواه من البشر ؟ لا أدري . هذا اذا لم تكن يد القدر قضت بأن القاه في عالم آخر غير هذا العالم . ولعمري كنت واثقة من البداية انه عهد الي ان ارفع روح هذا الرجل الى مستوى روحي

نعم فكرت في تلك الايام الموحشة التي قضيتها بكالكراتس، الرجل الوحيد الذي مست شفتاه شفتي . وفكرت أيضاً و لاسى ملء فؤادي كيف يرفضني هذا الرجل أو على الاقل يعرض عني أنا التي تجثوا الرجال تحت قدمي بالعشرات ، انا أجمل نساء العالم وأعظمهن حكمة وأرجحهن عقلا . ويميل الى امرأة أخرى لا انكر انها جميلة ومقدامة ولكنها لا تباريني ملاحة كالقمر بجانب الشمس

و الآن وقد انطفأت جذوة تلك الحرقة ولم يبق منها غير رمادها فقد ضحكت من نفسي كلما ذكرتها . غير اني أقول الحق ان ضحكي هذا كان مشوباً بالحزن لانني لما دعيت الى مأدبة الحب ـ وهي أعظم شيء في عين المرأة ـ شربت من كأس الخذلان والعار من يد ذلك السارق القاسي واعني به « القدر »

آه . لقد ابتهجت نفسي لخلاصي من كالكراتس الذي يحسن الضرب بالسيف في ميدان الوغي ... اذ ملكه الندم على تضييع ودع

مثل أقدس كاهن . وعلى كل حال شعرت الآن بأني سيدة نفسي في وسعي أن أكيف روحي على مثال الآلهة لعمرى ضرب جناحاي قضبان القفص وحاولت الانطلاق لأتمتع بالحرية ولكن . وأسفاه فتت يد القدر قضبان هذا القفص قوية فلم أستطع التغلب عليها

***

اخيراً علمت أن أوخوس مل المقام في بلاد الفرس أو انه خشي البقاء هناك فعوا مرة أخرى على أن يشرب من ماء النيل

وعلى ذلك جاء هذا الملك بمظاهر الابهة والعظمة الشرقية ونزل في قصر منف على مرمى القوس مرتين من الهيكل . وقد أقام السكان الحفلات له على كره منهم كما لو كان أوزوريس عاد الى الارض، وبدت هذه المظاهر في جميع انحاء المدينة عدا الهيكل وحده فلم تحرق له فيه نار ولا علقت مصابيح لانى لم أشأ أنا عائشة ان انى ركبتي البعل أو أقدم ذبيحة للوخ . وقد خشي بعض الكهنة عملي هذا وقالوا من يحمينا من غضب الملك العظيم فاجبتهم قائلة

— ستحمينا المعبودة واذا لم تشأ حميتكم أنا

زارني باغوس في الليلة التالية لوصول أوخوس فأمرت بدخوله منفرداً ، وعلى ذلك بقيت حاشيته في الخارج ودخل علي بثيابه الحريرية ولآلئه الغالية وقد استقبلته حيث استقبلته في المرة الاولى فجلست مقنعة على كرسي الرآسة أمام تمثال المعبودة المصنوع من المرمر عند مدخل المقصورة الخارجية المشرف على القاعة الكبرى ورحبت به قائلة

— مرحباً يا باغوس . كيف حالك ؟ هل وقاك رمز القوة الذي أعطيته لك من كل أذي وشر ؟

حنى الخصي رأسه وقال

– نعم وقالى يا سيدتي وقد رفعنى الى أعلي مكانة في الوجود بعد أوغوس ، فصرت امنح الحياة واقضى بالموت وارفع من أشاء واخفض من أشاء وصار الوزراء والقواد يسجدون تحت قدمي وأخذ الناس ينثرون الذهب حولى ولعمرى في وسعي أن أشيد منزلي من الذهب ولم تعد نفسى تتوق الى شيء في العالم

– اليوم الا أشياء معلومة لا تستطيع الحصول عليها بفضل ما اظهرته مالك الملوك او من تقدمه من القسوة والغلظة في مماتك . فليس لديك أطفال سدد يرثون هذا المجد وهذه الثروة الطائلة مع أنك تعيش وسط كثير من اللاتى يمكن أن يصرن أمهات

سمع باغوس قولي فاكفهر وجهه وزاد شراسة وصار مثل وجه شيطان ثم قال بصوت مبحوح

– لعمرى، تمرغين كيف تسكبين حمضاً كاويا على جرح مفتوح كي يطهر هذا الجرح يا باغوس

استطرد في كلامه دون أن يعير قولي الاخير اهتماما فقال

– ومع ذلك صدقت ، فان كل هذا المجد وكل هذه الثروة والقوة ابيعها بفرح لو أتيح لي أن أعود كما كان آبائى من قبل ، صاحب قطعة من أرض مصر الجميلة بين طيبة وفيلى . فقد عاشوا هناك جيلا بعد جيل مع نسائهم وأطفالهم، ولكن أين نسائى وأطفالي ؟ يوجد في الملك الا كمة الغربية تابوت ، وفي الغرفة التي فوق هذا التابوت تمثال المدفون فيه . وكان يعيش منذ الف وأربعمائة عام في عهد الملك اخس الذي انقذ مصر من يد الرعاة وهو قائد من قواد ذلك الملك فلما انتصر على الرعاة أعطاه الملك تلك البقعة مكافأة له على خدماته

امسك باغوس اذ ذاك عن الكلام هنيهة كما لو كانت هناك ذكرى آلمته ثم استأنف حديثه فقال

— كانت عادة أولاد هذا القائد ومن جاء من بعدهم من سلالتهم أن يقدموا في يوم معين قرباناً لذلك المثال الذي تقطن فيه روحه «كا» وأن يضعوا تاجاً من الذهب على رأسه وسلسلة ذهبية حول عنقه ويقدموا له الطعام والازهار . وكان هذا واجب مقدس تقوم به ذرية هذا الجندي الذي ساعد على تحرير مصر من أعدائها البرابرة . وقد قمت بهذا الواجب عندما وصل أوخوس الى منف في المرة السابقة ولكن اعلمي أيتها السيدة انني آخر سلالة هذا القائد . وقد أخذني الفرس لانني كنت صبياً جميلا وجعلوا مني شجرة جافة لا تثمر وعلى ذلك لن يقوم أحد بعدي بهذا الواجب المقدس نحو جدي ولا يقرأ أحد قصة أعماله التي نقشها قبل موته على لوحة داخل قبره

ضحكت من قوله هذا وقلت

— قصة عادية ، قصة عادية اليوم في مصر التي هي الآن في أيدي الفرس كما كانت في أيدي ملوك الرعاة من قبل . لقد كان جدك هذا جنديا هزم الرعاة أو ساعد على كسرهم ثم عاش لكي ينقش أعماله المجيدة على الحجر لتكون مثالا يقتدى به من يأتون من بعده . لقد انتهت قصته ، اليس كذلك ؟ لعمري لا أدري كيف ان باغوس ، عبد الفرس ، باغوس صاحب الجاه والسلطان ، يضيع وقته في ذكر قصة جندي منسي قاتل في زمنه دفاعاً عن حرية بلاده . ما قيمة الازهار الحقيرة التي قدمت أكثر من الف عام الى روح ذلك المقاتل ، بجانب اللآليء الغالية والذهب النضار وغيرها من التحف التي تسكب تحت

قدمي باغوس رئيس الخصيان وكبير وزراء ملك الملوك أوخوس الذى لو علم أين يدفن أجدادك العظماء لجرهم فى أكتافهم بلا مراء وأرغمك يا باغوس على أن تحرق جثثهم لكي يتلذذ بنيرانها ؟ لعمري من المناظر اللذيذة التي تروق فى عينى الملك أن يرغم باغوس العظيم على أن يحرقه أجداده وأن يطبخ بعظامهم طعامه كما ارغم كهنة المعبود بتاح على أنه يسلقوا لحم العجل ابيس لطعامه

سمع باغوس العظيم قولي وادرك معناه لانني لاحظت انه كان يجفل من كل كلمة ألقيها كما يجفل الانسان عند ما يشعر بالسوط يهوى على جسمه . أخيراً قال بصوت مبحوح

ــ كفى . كفى . لا أطيق سماع شيء بعد ذلك . لماذا تحركين عينى بالرمال أيتها الكاهنة

ــ لكي أزيل الغشاوة التى عليها فترى جيداً يا باغوس . ولكن لندع قصة ذلك الجندى الكريم الذى لن يقدم أحد الى روحه زهرة ولا قرباناً واخبرنى عن عجائب تلك الضيعة العظيمة التى جرى فيها دم جدك والتي لا تلبث أن تبتلعها رمال الموت . ولكن عليك قبل كل شيء أن تختم تابوته بعد أن تضع بداخله لوحة من المرمر أو الذهب تنقش عليها كيف ان الالهة منحت صاحب التابوت مجداً عظيماً بأن جعلت من سلالته باغوس رئيس خصيان أوخوس ملك الملوك الذي حرق هيا كل الالهة التى كان يعبدها أجداده

فتأوه باغوس وقال

ــ كفى . كفى لقد حانت الساعه

ــ أية ساعة يا باغوس ؟

ـ ساعة الانتقام الذي أقسمت به لايزيس .

ـ هل يذكر المصري عابد نيران الفرس عهوده التي قطعها لايزيس

فصح عهدك يا باغوس .

ـ اصغي اذن أيتها الكاهنة . قضيت السنين الطويلة التي مضت في

البحث عن فرصة [illegible] لا [illegible] من يدي، فخارت [illegible]

و [illegible] تتكاثر [illegible] حتى لم يعد هناك أحد من سلالته

لكي يقدم اليه قربانا .

ـ اذن تكلم يا باغوس .

ـ اعلمي يا سيدتي ان [illegible] حرس حانق عليك لأن [illegible]

ولم تتدفق على هيكل [illegible] الهياكل والابنية الاخرى

في منف ، ولم يشترك كهنة ايزيس وكهانها في نثر الازهار تحت قدميه

وقد بلغ منه الغضب مبلغاً عظيما حتى أراد أن يهدم هذا الهيكل حجراً

بعد حجر ويقتل من فيه لولا عينيه التي يخشى أن يفقدها .

فسألته بدون اكتراث قائلة :

ـ حقاً ما تقول ؟

ـ نعم يا سيدتي ولكنك نجوت بفضل هذا السم الذي وضعته

دائماً نصب عينيه وحذرته من مصير الذين ينتهكون حرمة ملكة السماء.

وقد فعلت ذلك صباح اليوم فقط وهو واقف يحدق النظر الى جدران

الهيكل المجردة من الزينة ويتمتم بكلمات الوعيد والانتقام .

ـ وماذا قال يا باغوس ؟

ـ ضحك وقال انه لا يريد انتهاك حرمة المعبودة ولكنه سيكرمها

بزيارته . وعلى ذلك استقر رأيه بعد ثلاث ليال من هذه الليلة أي في

الليلة التي يسير فيها القمر بدراً ، على أن يقيم مأدبة عظيمة في الفناء الداخلي من هـذا الهيكل . وسيجلس ملك الملوك مع نسائه في هـذه المأدبة على منصة تبدو من ورائها توابيت الموتى من الملوك والملكات وستحمل هذه المنصة [illegible] تماثيل المعبودات وستوضع أسماء [illegible] المقدسة أمام عروش نساء الملوك [illegible] ثياب [illegible] وعند انتهاء الحفلة تأتي المعبودة ايزيس نفسها من وراء تمثال هذا الذي تجلس أمامه وهي [illegible] على [illegible] ثم تسير متقدمة مقدمة الكاهنات أو أميرات الفرس [illegible] تكونين أنت تلك المعبودة يا سيدتى .

فسألته قائلة :

ــ وبعد ذلك ؟

ــ بعد ذلك تصعدين المنصة حيث يرفع [illegible] أو بالحرى [illegible] عن وجهك القناع ويصعدك الى [illegible] ترحيبا بك كزوجته أمام الجميع . وسيقوم بذلك سخرية منك لأنه يعتقد انك عجوز شمطاء تسيرين مقنعة لتخفي شيخوختك لأن هـذه هي الاشاعة الدائمة بين الفرس .

لما سمعت أنا عائشة هـذه الكلمات المروعة وادركت في قلبي مبلغ الاهانة التي عول هذا الملك المجنون على الاقدام عليها وما يصيبنى من جراء ذلك ــ ارتجفت أعصابي وكدت أسقط عن مقعدى الي الارض . على انى استجمعت قواى وقلت :

ــ هل هذا كل ما لديك يا باغوس ؟

ــ كلا ياسيدتى فما أكون بحكم وظيفتي ساقي الملك ومدّ أعطي الكاس

المجوهرة المملوءة بالخمر المقدسة الى اوزوريس ـ اوخوس ملك السماء والارض، في حين يرتل كهنة اوزوريس وكاهنات ايزيس الاغاني المقدسة القديمة عن قيام اوزوريس واقترانه بايزيس الزوجة المقدسة. وسيشرب اوخوس من تلك الكاس جرعة الزواج ثم يسكب قطراتهـا الاخيرة تحت قدميك . أو لسبب ما ربما القاها في وجهك . كلا . لقد نسيت . ستتقدم أميرات الفرس أولا فيجردونك من وشاحك لكي ينظر اوزوريس الى عروسه التي طال غيابها عنه . واذ ذاك تتعالى أصوات السخرية من الجميع استهزاء بجسمها الذي اكل عليه الدهر وشرب .

ـ واذا تبين أن زهرة شبابها لم تذبل بعد وانها فاقت حد الملاحة والجمال ، فما العمل في هذه الحالة يا باغوس ؟

ـ اذن يضمها الملك الى نسائه على ما أعتقد أيتها القديسة على زعم أنه يرضى المصريين بعمله هذا ، أواه يا سيدتي ، انك حكيمة بشهادة الجميع ومع ذلك كشفت عن ذراعك مرة عند مامددتها فيما مضى لكي تمسي صولجان ملك الملوك . ولعمري كم تحـدث اوخوس عن جمال تينك اليد والذراع وتاقت نفسه الى رؤية الوجه الذي فوقهما والجسم الذي هما جزء منه ، وربما كان هذا هو السر في اعداد هـذه الحفلة يا سيدتي .

ـ واذا رفضت أن ألعب هذا الدور فما هي النتيجة يا باغوس ؟

ـ ان أمر الملك قانون نافذ ، فاذا فعلت ذلك قضي الامر وأمر اوخوس بهدم الهيكل حجراً بعد حجر ونهبه وحرقه كغيره من الهيا كل الاخرى ثم يكره الكهنة على عبادة النيران وتساق الكاهنات ويتحملن ذل الاسرى أو يجدن مكانا في خيام الجند أو بيوت الفرس

فقمت ثم ملت فوقه وقلت :

ـ اعلم يا باغوس ان لعنة ايزيس تحلق فوق رأسك فارنى مخرجا من هذه الورطة والا كان نصيبك الموت ـ لا اليوم ولا غداً بل في الحال ولا تسلني كيف لأنك لم تنس ما أصاب أهل صيدا على يدى .

جبن الخصى أمامى ثم أجابني قائلا :

ـ كنت فى انتظار هذا السؤال ياسيدتى ولولا ذلك ما تجرأت على دخول هذا الهيكل منفردا . ألم أخبرك الآن انى سأكون بحكم وظيفتى ساقي للملك ؟ الآن اصغي الي

ثم خفض من سوطه واستطرد قائلا :

ـ سيضع طبيب الملك السم في خمر الزواج اعلمي أن هذا الرجل في قبضة يدى ، والحراس والقواد في خدمتى ، وكبار الوزراء ورجال الدولة موالون لى . ان الساعة التى انتظرتها أعواما طويله قد حانت فى النهاية . لست الوحيدة يا سيدتي التى تريدين الانتقام من اوحوس .

ـ هذه كلمات حلوة الذيذه ولكن من أين لى أن أعلم انها صادقة أتدرى ماذا يسمونك فى مصر يا باغوس ؟ انهم يدعونك كاذب الملك .

ـ انى أقسم بحق ايزيس ، واذا خذلتك فتلتهم روحي الزابية في العالم السفلي .

ـ وأقسم أنا كاهنة ايزيس أن أسفك دمك اذا خذلتني . واذا مت فسيحيي ألوف للاخذ بثاري ولا بد أن يصل سهم أحدهم الى صدرك فى النهاية أو فلتتول المعبودة بنفسها القضاء عليك

ـ لا أجهل ذلك وسيكون نصيبي الفوز والنجاح بلا مراء . وسيمضي النوم ملك الملوك بعد تجرع الكاس ، ثم وسيعود اوزوريس الى قبره ،

و...ه نوماً عميقاً ولكنه لن ينام بين ذراعي ازيس .

ساد السكوت بعد ذلك هنيهة ...نا الى أن أمرته في النهاية بالانصراف

* * *

حانت ليلة المأدبة وعد كل شيء . ولم أكن واثقة بالخصى باغرس وتى ذلك وصعت حطتي وكانت حطة باهره مريعة ، فصممت على أن قدم حتى المدعوب — ملك الملوك ونسائه وقواده ورجال حاشيته وور.ئه — ذبيحة واحدة الى آلهة مصر التى انتهك هؤلاء البرابرة حرمتها وان اقدم نفسي ومن معي ذبيحة كذلك اذا اقتضي الامر لكي يرشدهم في طريق الهلاك والدمار .

وكان تحت تلك القاعة التى سيتناولها الملاك الحرس لمأدبة المأدبة ، قبو واسع أو بالحرى مخزن كبير لادخار الزيوت والوقود الى وقت الحاجة . واتفق ان كان هذا القبو مملوءاً في ذلك الوقت بالزيوت والوقود الى السقف لانى لم اكن أدرى فى تلك الايام متي يحاصرون الهيكل . وكان فوق ذلك أوراق مكدسة من أوراق البردى وعقاقير من التى يستخدمها المصريون في تحنيط موتاهم وتوابيت اعدها الاحياء لوضع جثثهم اذا ما فارقوا الحياة ثم كمية عظيمة من الخشب والقش . فكان اشعال النار والحالة هذه لا يحتاج الا الى فتح طيقان صغيرة لتوصيل الهواء ثم الى شخص يوثق به يعهد اليه باشعال النار في الزيت والقش ثم هرب بعد ذلك . واتفق اذ كان لدى من استطيع أن أعهد اليه بهذه المهمة وهى كاهنة عجوز قضت اكثر من سبعين عاما وكانت امرأة شجاعة مقدامة لا تهاب الموت .

دعيت في تلك الليلة عينها الكهنة والكاهنات الى المقصورة

فاطلعتهم على كل شيء وأخبرتهم كيف استقر رأيي على أن اقضي على هؤلاء البرابرة وأرسلهم من هذا العالم الى أنياب المنتقم الابدي

فحنى الكهنة قولي فحنوا رؤوسهم اذعانا للامر ثم سألني أحدهم وهو كاهن طاعن في السن قائلا :

ــ هل كتب علينا أن نأكل النيران مع اولئك الخنازير ؟ اذا كان الامر كذلك فانا لا نعصى للمعبودة أمرا

فاجبته قائلا :

ــ كلا . سيكون الممر السري الذي يجرى من مؤخرة هيكل اوزوريس مفتوحا فاذا ما رأيتم النيران تشتعل اهربوا من هذا الممر وسألتحق بكم اذا استطعت . أما اذا لم التحق بكم فاعلموا أن المعبودة دعتني اليها . وستجدون عند نهاية الممر او بالحرى عند شاطيء النهر الزوارق معدة لكم . وستجدون فيها رجالا ممن يؤمنون بمعبودتكم وستسير هذه الزوارق بكم تحت جنح الظلام وخلف ستار الضجة الى ستقوم اذ ذاك الى المعبد السرى الذي يسمى « ايزيس بين النسب » حيث وجدت ايزيس ــ كما يقولون فى قصص الاولين ــ قلب اوزوريس الذي اخفاه « تيفون » . وهو المعبد القائم في الجزيرة التي لا يجرأ على زيارتها أحد ولا الفرس انفسهم لانها تحت حراسة ارواح الموتى أو تحت حراسة ألسنة من النيران مرسلة من العالم السفلي . فاهربوا الى هناك واختفوا لي أن نأتيكم كلمة ايزيس

حنى الكهنة رؤوسهم مرة اخرى ثم قال الكاهن العجوز

ــ سيكون عملنا هذا عظيما ، يتردد صداه في جميع اروقة السماء وستكلل الآلهة رؤوسنا بالمجد والفخار ومع ذلك هيا نطلب الى المعبودة

أن تعطينا علامة قبل أن تقدم على عملنا هذا

ـ نعم هيا نطلب الى المعبودة علامة

جثا الجميع أمام تمثال المعبودة ووضع كل منا يده في يد الآخر ثم أخذنا نرتل الاغاني المقدسة ونتزع ونصلي ونتوسل طالبين الى المعبودة أن تعطينا علامة لكي يتمجد اسمها على الارض

لم يسمع أحد نداءنا على ما يظهر ولم نر علامة فجثا الجميع في صف مزدوج وتقدمت أنا الكاهنة الاولى حتى اقتربت من تمثال المعبودة الابيض وهو قائم فوقنا في نور المقصورة الضئيل ثم تناولت «الجلجلة» المقدسة فوضعتها على شفتي المعبودة ثم هززتها فتعالى رنينها وبعد ذلك جثوت وقبلت قدمي المعبودة

قمت على أثر ذلك والقيت كلمات القوة الرهيبة في اذنها ثم عدت الى الكهنة الجاثين واشرت اليهم ان يرهفوا آذانهم للسمع ووضعت ذراعي فوق صدري ووقفت مطرقة بخشوع وهيبه

لم تمض مدة وجيزة حتى سمعنا حفيفاً كرفرفة اجنحة الطير وهبت ريح باردة على وجوهنا وسمعنا صوتاً يخاطبنا هو صوت نوت نفسه قائلا

ـ تقدموا . بذا قضت الارادة . تقدموا ولا تخافوا

دقات

ـ ها قد سمعتم

دقائق

ـ نعم سمعنا

ـ صوت من سمعتم ؟

ـ سمعنا صوت نوت ، رئيس الكهنة المقدس الذي غادرنا

ـ هل اكتفيتم ؟

ـ نعم اكتفينا

***

انصرفت بعد ذلك مبتهجة بعد أن علمت من هذه اللامة أذنوت لذي خاطبنا لا يزال حيا على الارض ، وان السماء اعلنت ارادتها على السانه

الفصل السادس عشر

المأدبة

كانت ليلة المأدبة . وكان عمال الفرس قضوا النهار كله في هذه الهيكل يهيئونه للمأدبة فوضعوا المناضد على طول المكان والى جانبها الكراسي والمتكآت . ثم أقاموا عند رأس الفناء منصة حملوا قوائمها من تماثيل معبودات مختلفة ونصبوها فوق توابيت الموتى من الملوك القدماء . وقد فرشت المنصة بالطنافس وكسيت الموائد بالاقمشة الحريرية القرمزية المصنوعة في صور ونثرت عليها الاكواب والادوات الذهبية ثم نصب عرش من الذهب عليه تمثال عشر طاووساً فارداً جناحيه ووضع امامه منضدة من خشب الابنوس الاسود المطعم بالعاج في حين صفت على جانبيه عروش أخرى صغيرة — وكان هذا المكان الاخير معداً للملك ابولونيوس وبعض رجاله .

ولم يكتف هؤلاء بما هنالك ، فقد أعد الخدم والسقاة مكاناً في الفناء الخارجي لايقاد النار وجهزوا أدوات الخمر . ولعمري لم يسمع أحد في تاريخ مصر كلها بمأدبة فخمة وغريبة في بابها مثل هذه المأدبة التي أعدت على هذه الحال في افنية هيكل ايزيس

لما مالت الشمس نحو الغرب جاء باغوس ومعه عدد من الخصيان ورجال الحاشية فدخلوا الى الفناء الداخلي وأمر باغوس بدعوة الكهنة فلما جاؤا بالغرم ما يجب عليهم القيام به فقلنا نحن عبيد ملك الملوك وأننا لامره طائعون

خرج باغوس بعد ذلك مع رجاله ولكنه تظاهر لما مر من أمامي انه عثر بشيء وهمس في اذني قائلا

ـ لا تخافي أيتها الكاهنة . ان كل شيء سائر في مجراه الحسن وان النهاية ستكون طيبة

فاجبته قائلة

ـ لست خائفة أيها الخصي وأعلم ان كل شيء سائر في مجراه الحسن وان النهاية ستكون طيبة .

***

ارخت الظلمة ستورها وجعل الليل فانيرت على طول القاعة مصابيح محمولة على قوائم من البرونز وزعت أحسن توزيع بين الموائد ثم أخذ المدعوون يتوافدون [illegible] وكانت [illegible] بثيابهم الساحرة . والقواد والضباط [illegible] والتجار [illegible] الزاهرة وا [illegible] مسرورة و [illegible] . وكان السقاة والخدم يجلسون كل واحد في مكانه الخاص [illegible] ولا تسمع لهم الا همسا

كنت مع رفقتي خلف [illegible] المدلاة على باب القصور الخارجية نراقب ما يجري . وكان جميع [illegible] في ثيابهم [illegible] المزينة بالزهور . أما انا فقد [illegible] ثياب [illegible] فاخرة [illegible] وارتديت ازاري فوقها ووضعت على [illegible] عن [illegible] الثبات [illegible] البلادة [illegible] وغيرها من الزهور [illegible] وحملت [illegible] يدي الحلقة [illegible]

حين ... الطبول علانا بقدوم ملك الملوك فرأيته سائراً في القاعة الطويلة ... تاج اوزيريس وعلى رأسه التاج الطويل المزين بالريش ويمسك في يده عصا الملك وسوط الحكم .

وكان ... وكهنته يتقدمونه الى أن وصل الى سلم المنصة التي ... فوق جثث الموتى حيث أقيم مذبح صغير كأس تتقد عليه نيران ... المقدسة

وقف ... وهو يلوح بسوطه الذي يلهب بمظهر ... الحريم ... وجوههم ... وخلوه ... ثم ... كالموتى في القبور . وكان مشهدهم غريباً وهم رقود على هذه الحال فوق وجوههم مثل الموتى

وكنت ... أراقبه من خلف قناعي وروحي مندهشة بتلك القوة التي ... في ساعات الخطوب الخطيرة . وقد ... لهذا المشهد حتى كنت ... ولا عجب فقد رأيت ... ذلك الملك فوق ... مع ... الذي ... في ... اطاره ... من تحت قميصه ... لي كل ... الغليظة ... من ... . فقد كان هذا الملك اوقف على جثث الملوك . يفتخر ... وشك الهلاك . ... كأس العرس المسمومة أو ... من ... سيموت وسيتجرع كأس الهلاك واذ ذاك ... والمنية ال... ؟

... كأس ... لسانه ـ اذا ما انقلبت هذه الكاس ... ـ يدافع يأتي عن الف تهمة وتهمة التصقت ... على ارتداء ثياب اوزوريس لكي

بين م .ريس : سيما ان اوزوريس هو اله الموت و ن ايزيس تتقدم دائماً من ينتهك حرمة قوانينها ؟ لا عجب اذن اذا كنت أنا مدهشة قد ضحكت في قلبي واطلت عيناى النظر الى هذا الملك الاحمق

لوح اخوس — اوزوريس بصولجانه فدبت الروح ثانية في احسام المدعوين الذين كانوا منبطحين على وجوههم كالموتى وتحركوا ثم قاموا وعاد كل واحد منهم وجلس في المكان المعد له حسب درجته حول مائدة اوزوريس هذا الذي عاد الى الارض

استمرت المأدبة فأكلوا كثيرا وشربوا كثيرا الى ان لعبت الخمر برؤوسهم ولم يعد في طاقتهم الوقوف على أقدامهم تقريبا . وبعد ذلك حانت الساعة الرهيبة فقام اوخوس ولوح بصولجان الملك قائلا

— قم اوزوريس في مصر ثانية ! لتتقدم روحته ايزيس المقدسة لكي اشرب معها كأس الزواج ويضمها الى صدره

فصاح الجميع هاتفين

— نعم قم المعبود اوزوريس في مصر ثانية فأتوا بالملكة ايزيس ولتتقدم الى بعلها لكي يشرب معها كأس الزواج ويقبلها

دعا الحرس الى المائدة فخرجنا من المقصورة واجتزنا الستائر ومررنا أيضا بالبسيطة ترتل ترنيمة العودة الى أن وصلنا الى القاعة الكبرى في صف مزدوج سرت في طليعته . وكانت تحف بنا مظاهر الهيبة رغم ذلك فنسى القوم وهم سكارى أن يسجدوا لنا او يحيوا بنا وبمروري حتى نهضوا من رؤوسهم اجلالاً واحتراما

وصلنا الى المنصة التي قامت على توابيت الامراء والملوك وجدت في شكل الموت عرفنا واذ ذاك تقدم احد الحراس فصعد بي منصة وقعت وجهاً لوجه مع اوخوس فحدجني بسخرية قائلا

ـ مرحباً بملكة السماء . انظري . لقد قام اوزوريس عاد الى السبل ثانية حيث وجدك في النهاية . اسفري عن وجهك أي ملكة السماء لكي امتع ناظري بجمالك العظيم وملامحك الفتانة التي لا تذبل ازاهره

تعالت أصوات البرابرة بالضحك ابتهاجا بهذه الاهانة فاستمرت الى أن تلاشت أصواتهم المنكرة ثم أجبته قائلة

ـ ألم تسمع أيها الملك المرتدي ثياب ملك أعظم منه قوة وسلطاناً وهو ملك الموت ، إذ من البشر العظام رفع النقاب عن وجه ايزيس وأنه لم يره أحد وعاش ؟ ألك تزعم انني لست الا امرأة ولكن اعلم انني هنا في معبد ايزيس في مكانها المقدس الذي تجرأت على تدنيسه امثل المعبودة نفسها التي ارتدي ثيابها المقدسة . وعلى ذلك اضرع اليك أن تفكر في الامر ثانية قبل أن تأمرني برفع نقابي

ساد السكوت هنيهة بين الجميع . واستولى الخوف على قلب الملك هنيهة ولكن لم يلبث أن تغلبت الخمر والغرور على خوفه هذا فصاح غاضباً قائلا

ـ هذا ؟ هل تسمع الملك الصالح تهديداً وتحدياً من امرأة مجنونة ثم انها تدعو نفسها الهة ومعبودة . لقد حضرت الى اجتماعاتك من قبل مرة أيتها العجوز وتركتك ملتفة في خرقك هذه القذرة ولكني آتي اليك الآن كملك وملكك فلي ان اطلب ما هو حق لي ، فانزعي هذا الازار والا أمرت نسائي أن يجردنك من جميع ثيابك

ساد السكوت مرة أخرى فانتهزت هذه الفرصة وأخذت اقلب النظر فيما حولي الى أن وقعت عيناي على تمثال المعبودة المصنوع من المرمر فرفعت عيناي الى السماء وصليت الى المعبودة قائلة

ـ يا من تراقب من عرشها في القمر كل شيء يجري على الارض ، ويا أيتها الروح العظيمة التي يدعوك الناس على الارض باسم ايزيس ، يامن تنقذ من تشاء وتنتقم ممن تشاء ، يا من تعرف الموت والحياة وتحكم على القلوب والارواح ، يا من لا تفرق بين الامير والحقير لان الجميع ليسوا الا ترابا تحت قدميك الايديتين . اصغي الى توسلاتي أنا كاهنتك الناطقة باسمك . انك تعرفين المأزق الحرج الذي وقعت فيه مع هؤلاء الكهنة والكاهنات خدامك فاحفظيني بحفظيهم اذا شئت أو فادعينا اليك . لا اطلب اليك شيئاً ولا اطلب أن تحولى عجلة القدر عن مجراها وانما اطلب اليك أن تنظري في أمرى وانا بحكمك راضية . ان ميزان القدر في يديك فمن انا حتى اعلى هذه الكفة او اخفض تلك ؟ فاحكمي أيتها الام ايزيس اذن بيني وبين هذا الملك الذى يرتدى ثياب ملك الموت ويسخر منك بسخريته مني انا خادمتك على الارض

فقال أوخوس ساخراً

ـ كفى أيتها المرأة وامسكى لسانك عن مخاطبة معبودة بعيدة عنك وانزعي وشاحك . هات يا باغوس كأس الزواج حتى اشرب نخب هذه الزوجة الجديدة التى تظن انها شبه مقدسة

أشار باغوس رئيس الخصيان الى رجل اسود اللحية أحمر الوجه عرفت انه طبيب الملك فتقدم هذا يحمل كأساً من الذهب فذاق مافيها أو بالحري تظاهر بذلك ثم وضع السم في الكأس بخفة بحيث لم يلاحظ هذا غيري وبعد ذلك رفع الكاس الى فوق ثلاثاً ثم خفضها ثلاثا كذلك ـ لكى يخلط السم بالخمر بلا مراء ـ وتقدم الى الملك فجثا على ركبتيه أمامه وقدم الكاس الذهبية الى سيده ملك الملوك وملك العالم

تناول أوخوس الكاس وقال

ــ الآن اخبريني أيتها الكاهنة هل تريدين أن تسفرى عن وجهك وتنزعي ازارك مختارة أو هل تريدين ان استدعي الخدام لفعل ذلك؟

فاجبته قائلة

ــ لا حاجة الى ذلك ومع هذا أريد أن القى على مسامعك كلمة واحدة أيها الملك العظيم والفاتح المهاب وهي ان الملك العظيم الذي يجرأ على أن يرتدى ثياب أوزوريس قد يخطىء من وقت الى آخر وهكذا اخطأت أيها الملك عند ما قلت ان ايزيس بعيدة عني لا [illegible] وانا ايزيس

تقدمت كاهنتان باشارة مني الى جانبي وحلتا أزرتي فسقطت [illegible] الارض ووقفت أمام أوخوس ورجاله في ثياب ايزيس الفاخرة [illegible] جميلة مثل ايزيس ، احمل في يدي رموز ايزيس وصولجانها [illegible] به العالم .

رأى الجميع ما جرى فتعالت أصوات الدهشة والعجب من [illegible] المحتشد في القاعة وكذا رأى أوخوس فاضطربت عيناه [illegible] وتمتم قائلا .

ــ وحق النار المقدسة ، هذه مخلوقة جديرة بالزواج [illegible] امرأة أو معبودة

فأشرت اليه برمز الحياة وأجبته قائلة

ــ اذن اشرب يا أوخوس ــ أزوريس كاس الزواج ثم خذها سواء كانت امرأة أو معبودة

شرب أوخوس الكاس وتجرع ما بها الى آخر قطرة . والظاهر انه

نسي أن يقدم الكاس الي فالقاها فسقطت على المذبح الصغير الذي تتقد عليه النيران المقدسة فاطفأتها ثم تدحرجت وسقطت على الارض

نظرت اذ ذاك الى باغوس فرأيت على وجهه صورة مفزوعة لم أرها على وجه رجل من قبل . فكانت قاسية ولكنها كانت تنم على الظفر وكان ينظر اليه نظرة المغلوب البارد الذي صار غنائم ونعم رأيت في نظرته هذه الجحيم مجسما

زمجر المدعوون عند ما رأوا هذا الحادث وتشاءموا من انطفاء النيران . على أن الجرعة التي تناولها أوخوس خففت من حدته قليلا على ما يظهر فلم يكترث بشيء . وفي الواقع زالت علامات الشراسة من عينيه وبدت فيهما دلائل الخداع والمكر كالتاجر ، وكالتاجر أخذ يطرى ملاحتي قائلا

— دعيني امتع ناظري قبل أن تقدم الي ولعمري أشعر بابتهاج لفوزي بك أعظم من كل ابتهاج شعرت به أثناء فتوحاتي فقد ادركت الآن السر في الملك فامنحيني لذة المدامة الذي في وجهك

أخذ أوخوس يفوه بمثل هذه الكلمات وينظر الى ملامحي حين ماؤها الخداع والنشر الى ان قام في النهاية لكي يجتاز المذبح المسجد ويتقدم الي

القيت نظرة عامة على الموقف كله في هذه اللحظة الرهيبة ، فخطر ببالي ان باغوس خدعني وان السم قليل او ان المشروع فاتل على الاقل واني اذ كنت أريد الافلات فليس علي الا ان اعتمد على نفسي ، ومع ذلك وقفت قبل أن اقدم على عمل سيؤدي بحياة المئات ثم خاطبت أوخوس قائلة

ــ قف . لا تضع أصبعاً علي والا صببت على رأسك لعنات ايزيس

فاجابني قائلا :

ــ كلا . انى سأتمتع ببركات ايزيس أيتها الحسناء يا من تمثلين الملاحة المجسمة .

تقدم أوخوس الى أن اجتاز المذبح الصغير ثم امسكني وطوقني بذراعيه وضمني الى صدره في حين تعالت أصوات الجمع بالابتهاج والفرح .

ألقيت « الجلجلة » التي كانت بيدي لان ساعة الرحمة كانت قد انتهت وكان الصوت الذي انبعث منها صوت القضاء على هؤلاء الكلاب لانها كانت الاشارة المتفق عليها بيننا

انتقل الامر في الحال الى الكاهنة التي عهدت اليها باشعال النار من تحت ولم تمض لحظة حتى شرعت تلك العجوز الشمطاء تنفذ مهمتها بشعلة اعدتها لهذا الغرض . ولعمرى لم يهرع حبيب الى صدر حبيبته بمثل السرعة التي كانت تجرى بها هذه العجوز من كومة الى كومة تشعل النيران بالزيوت والقش

الآن صرت في قبضة هذا الملك الوحشي تماما فضغط بشفتيه الملتهبتين على صدرى وشفتي في حين وقفت ساكنة لا انازعه ولا اناضله وبقيت جامدة مثل تمثال المعبودة

والظاهر ان برودى هذا اخافه فقال متردداً

ــ هل أنت امرأة من البشر

فأجبته بجرأة قائلة

ــ كلا . انا ايزيس ، والويل لمن يضع يده على ايزيس !

ارخى اوخورس ذراعيه ثم وقف يحدق النظر الي واذ ذاك سألني قائلا

ـ ماذا أرى في عينيك ؟ ارى جميع شياطين مصر تنظر الي من عينيك .

فأجبته قائلة

ـ كلا . ان شياطين الجحيم هي التي تنظر اليك من عيني . لقد أمرت ايزيس جميع شياطين الجحيم باطلاقها عليك أيها الملك المرتدي ثياب ملك الملوك

ـ ماذا تقولين ؟ ما معنى قولك هذا ؟

ـ ستعرف معنى قولي هذا قريباً ، ولكن في الجحيم . وعلى ذلك ودع العالم واستقبل الموت

جحظت عينا اوخوس وأخذ يترنح يمنة ويسرة ثم سقط فجأة كأنما اخترق قلبه سهم مسموم وقد أماى على ظهره يحدق النظر الي القمر ثم صاح قائلا

ـ ارى ايزيس في القمر . انها تهددني من القمر . أيها الرجال خافوا ايزيس ساكنة القمر . القمر . باغوس ، ايها الطبيب ، باغوس . احميني من ايزيس . انها تنتزع قلبي بيديها . ايتها الساحرة . ايتها الساحرة لا تنزعي قلبي بيديك

اخذ اوخوس يولول بصوت رهيب . وكانت هذه كلمته الاخيرة التي فاه بها لانه رفع رأسه واخذ يدور بعينيه الزائغتين فيما حوله ثم سقط رأسه بشدة على الارض وصار جثة هامدة لا حراك بها

هرع باغوس والطبيب اليه وصاح الخصي قائلا

ـ لقد نزلت لعنة ايزيس على ملك الملوك

وصاح الطبيب قائلا

ـ لقد مات الملك الذي ركب مطية العالم بضربة ايزيس، الهة المصريين

رفع باغوس والطبيب جثة الملك تساعدهما نساء اوخوس الـ ـدات ثم نزلوا بها من المنصة وساروا فى القاعة واختفوا فى الظلام ولم تمض مدة وجيزة حتى سمعت وسط السكون العميق لذى خيم على المكان ابواب الهيكل الخارجية تغلق خلفهم

بقيت السكينة مخيمة بعد ذلك هنيهة لان الرعب استولى على الجميع فجمدوا في اماكنهم كالتماثيل الى أن صاح أحدهم في النهاية قائلا

ـ لقد قتلت الساحرة ايزيس الملك بقبلتها فاقتلوها ومزقوا جسمها اربا. اقتلوها ومن معها

أخذ الرجال يتحركون فسمعت صليل السيوف فى أغمادها ثم ـ ـ ـهم يموجون كالامواج على سطح بحر هائج وأخذوا يتدفقون كالامواج كذلك نحو المنصة التى كنت اذ ذاك واقفة عليها منفردة فلت والتقطت « الجلجلة » ثم مددتها نحوهم وصحت قائلة

ـ حذار . اثبتوا في مكانكم والا نزلت بكم لعنة ايزيس كمدت ترددوا هنيهة ولكنهم عادوا فتدفقوا الى الامام ثانية وصرخوا قائلين

ـ أيتها الساحرة ، أيتها الساحرة

لوحت بذراعي في وجوههم ، وكأنما جاءت تلبية هذه الاشارة اذ شاهدت في الحال عموداً من الدخان الكثيف يتصاعد من وراء المنصة وألسنة النيران تندلع بشدة . ثم لوحت بذراعي مرة أخرى فتصاعد الدخان من الناحية الاخرى من القاعة وتلته ألسنة النيران

حول الرجال وجوههم فشاهدوا الدخان واذ ذاك أدركوا ما ـ ـ ـه

وصرخوا قائلين

— لعنة ايزيس . لعنة ايزيس نزلت علينا لقد خرجت النيران من الجحيم

فأجبتهم قائلة

كلا . انما نزلت النيران من السماء وقد صبتها الآلهة الغضبى . ارتفع بيني وبينهم الآن سياج من نار لم يجرأ أعظم شجاع بينهم على اقتحامه . فوقفوا في أماكنهم جامدين . وقد رماني أحدهم بسيفه ولكنه مر من فوق رأسي ثم هرعوا الى أبواب القاعة فوجدوا في وجوههم سياجا آخر من النيران . وقد اقتحم بعضهم هذا السياج ولكنهم وجدوا الابواب موصدة في وجوههم والحراس قد تملكهم الذعر ففروا وتركوا الابواب

ارتد هؤلاء الرجال على أعقابهم وهم يحترقون . نعم شهدت النيران تشتعل بثيابهم الحريرية وشعرهم المدهون بزيوت الطيب فكان كل واحد منهم مثل شعلة متنقلة . وقد دفعهم الذعر الذي تملك قلوبهم الى أن يجمعوا المناضد ويضعوا بعضها فوق بعض محاولين تسلق جدران القاعة وقد كان في وسع بعضهم على الأقل أن ينجو بهذه الحيلة ولكن يجذب بعضهم بعضا ويسقط الجميع كومة واحدة وقد تكدست أجسامهم وخمدت منهم الانفاس

تحولت اذ ذاك وهرعت من فوق المنصة يحجبني ستار الدخان فدخلت المقصورة الداخلية حيث وجدت جميع الكهنة والكاهنات في انتظاري عدا الكاهنة العجوز التي كانت لا تزال تشتغل باشعال النار في مخزن الزيت والوقود والتي صعدت روحها بلا مراء الى السماء على

أجنحة اللهيب

نزع الكهنة ثيابي ولفوني في ثوب اسود . وبينما كانوا يقومون بهذه المهمة نظرت الى الخلف فرأيت ألسنة النيران قد اندلعت في كل مكان بالقاعة والتهمت المنصة التي كان أوخوس واقفا فوقها عدا تماثيل لآلهة التي تحملها فقد ظلت يحدق النظر بأعينها الجامدة وهي قائمة وسط النيران والدخان بصورة رهيبة تمثل أروع مظاهر الانتقام والهلاك الابدي

لم أطق رؤية شيء بعد ذلك . على أنني سمعت فوق فرقعة النيران صراخ المدعوين الذين وقعوا في الفخ وكانوا قد أتوا ليروا ملكهم يسخر من ايزيس وكاهنتها . وقد مكثوا على هذه الحال المروعة الى أن هوى سقف القاعة بهم الى أتون النار المتقدة تحتهم — ثم هوى الذين يعبدون النار الى قلب معبودتهم النار

وهكذا انتقمت ، أنا عائشة ، بنت الحكمة ، وابنة يعرب حسب الجسد ، من الفرس وملكهم وكنت سيف النقمة الذي هوت به يد الآلهة على رؤوسهم . لقد انتقمت بالنار ، أنا التي كانت النار الأثر الذي يبين طريقي في الحياة وستظل كذلك الى الابد

الفصل السابع عشر

جزيرة ايزيس

وصلنا الي الممر السري حاملين معنا كنوز ايزيس وكتب الهيكل المقدسة التي لا تزال موضوعة الى اليوم في كهوف حور ثم مررنا في هذا الممر الى أن وصلنا سالمين الى هيكل اوزيريس الذي دمره الفرس ومنه الى شاطيء النهر حيث كانت الزوارق بانتظارنا فركبناها دون أن يرانا أحد وانسلت بنا شمالا . وكان الجميع مشتغلين بالدار التي شبت في هيكل ايزيس وبالاشاعة التي ذاعت بأن المعبودة نزلت كشعلة من نار . وأهلكت أوخوس الجبار مع قواده ووزرائه وجميع حاشيته . وهكذا ودعت مدينة منفيس ذات الأسوار البيضاء التي عاينتها آخر مرة .

ماذا حدث بعد ذلك ؟ لا أدري غير أنني سمعت من الاشاعة التي ذاعت وحملها الى فيلي فيما بعد أن باغوس والتعذيب أعد جثة أوخوس الي الكلاب وبنات آوى فأكلتها وأنه لولا ثياب أوزيريس التي كان يرتديها لما عرف أحد بقايا ملك الملوك الذي دنس المعابد وفقر البلاد . ويقولون أيضا أن باغوس أجلس أرسيس ابن أوخوس على عرش الفرس ثم قتله بعد ذلك بالسم كما قتل جميع أولاده عدا واحدا والظاهر أنه نادى بعد ذلك بدارا ملكا على بلاد الفرس . وقد عرف الملك دارا فيما بعد أن باغوس يريد قتله كمن تقدمه من الملوك فدفع عن نفسه بمهاجمة خصمه وأكرهه على أن يتجرع الكأس المسمومة التي أعطاها لكثيرين

كانت هذه على مايظهر نهاية باغوس الذى استخدمته كما يستخدم الصانع اداته وجعلت منه سيفا طعنت به قلب بلاد الفرس كما طعنت بتينس مدينة صيدا . وقد سلك هذا الخصى الطريق عينها التى أكره ضحاياه العديدين على سلوكها وتجرع الكأس نفسها التى أرغمهم على تجرعها

* * *

وصل ركبنا قبل الفجر الى المعبد السرى المعروف بمعبد ايزيس بين الغاب حيث أعد الكهنة هنالك كل شيء لاستقبالنا . وكان التعب قد أخذ مني مأخذا عظيما فرقدت في غرفة صغيرة ونمت مطمئنة و ثقة بأنه لا يمسني ولا الذين معي أقل أذى . ولا أدرى من أين جاءتني هذه العقيدة ولكن هذا ما علمته ، وعلمت فوق ذلك أن علاقتي بمصر قد انتهت واني طلقتها منذ الآن

نمت طول ذلك اليوم والشطر الاكبر من الليلة التالية تدللني نغمات الغاب الطويل المحيط بنا التى تنبعث منها عند ما تلعب بها الرياح . وقد رأيت فى تلك الليلة حلماً غريبا فقد رأيتني واقفة وسط صحراء شاسعة يجرى النيل عند طرفها . وكنت منفردة فى تلك الصحراء لا رفيق لى غير الشمس التي كانت تغرب فى الغرب والقمر الذي أخذ يرتفع من ناحية الشرق فى حين شاهدت تمثال أبي الهول رابضا بينهما بصدره ورأسه اللذين يمثلان صدر امرأة ورأسها . وقد علمت أن هـذا التمثال يمثل مصر وهو رابض على هـذه الحال . أبديا لا يتغير ، جيلا ، رصينا يحدق النظر بعينيه نحو الشرق حيث تشرق الشمس صباحا بعد صباح

مرت جميع آلهة مصر أمام أبي الهول وعلى رأس كل منها رموزه الخاصة المقدسة . وكانت هذه الآلهة مجموعة تخيلية غريبة منها ما هو

علي شكل حيوان راس انسان ومنها ما هو على شكل انسان براس حيوان ومنها ما هو على شكل عقاب أو تمساح أو بوم أو ثور أو تيس أو قرم منتفخ البطن

اصطفت هذه الآلهة أمام تمثال مصر الجميل ففتح أبو الهول فمه وتكلم قائلا

— ماذا تريدين مني أيتها الآلهة بعد أن آويتك أجيالا طويلة ؟

فتقدم معبود على شكل انسان بين منكبيه رأس بمنقار وعلى رأسه تاج على شكل هلال ، يحمل في يده لوح كاتب وهذا المعبود هو الذي يسميه المصريون ثوث أو الحصي

تقدم هذا المعبود وقال

— نريد أن نودعك أيتها الام مصر ، يامن آويتنا جيل بعد جيل : لقد خلقنا من طينتك والي طينتك نعود

فاجابه أبو الهول قائلا

ـ حقا ؟ اذن انتهت أيامك القصيرة . ولكن اخبريني أيتها الآلهة من الذي أعطاك هذه الصور الغريبة ومن الذي دعاك بالالهة

فأجاب المعبود قائلا

ـ الكهنة هم الذين أعطونا هذه الصورة وهم الذين دعونا آلهة . الآن وقد قتل الكهنة فسنتلاشي معهم لاننا لسنا الا آلهة مصنوعه من طينتك أي مصر

ـ اذن عودي الى الطين أيتها الالهة المصنوعة من الطين . ولكن اخبريني أولا أين روحي التي أرسلتها في بداية العالم لتكون روحا مقدسة تحكم مصر والعالم ؟

فأجاب ثوت المحصى قائلا

ـ لا ندرى . سل الكهنة الذين صوروها فربما أخفوها في مكان ما الى الملتقى أي مصر ، وداعا اى ابا الهول . وداعا ، وداعا

فردد الجمع الغريب صدى هذا القول قائلا

ـ وداعا . وداعا

ثم انصرف وتلاشى عن الانظار

ساد السكون بعد ذلك واقفر المكان وكان أبو الهول يحدق النظر الى « لاشيء » ويحدق « لاشيء » تنظر الى أبي الهول من وقفت أنا المراقبة [illegible] » أخيراً تام شبح من لا شيء . [illegible] هذا الشبح ذا جلال وهو على شكل امرأة وقفت امام ابي الهول وخاطبته قائلة

ـ انظر الى . انى روحك المفقودة ولكنك أبى مصر لم تخلقني لانى خلقتك بأمر مقدس أنا التي يعرفني الناس هنا على النيل باسم ايزيس والتي يعرفني العالم [illegible] باسم الطبيعة ، وهي الثوب الظاهر للاله [illegible] لقد انقضى [illegible] ومع ذلك فلا أزال ولا تزالين باقية . ومع أننا سندعى في الأيام التالية التي لا نهاية لها باسماء عديدة فسنبقى الى أن تكف الأرض عن دورانها وتتحول الى الجسم الذى تولدت منه

قام أبو الهول بعد ذلك من قاعدته الحجرية التي جلس عليها من البدايه ثم تقهقر بجسمه الضخم ثم خر على ركبتيه أمام شبح المرأة التي هى ايزيس ، التى هى الطبيعة ثم سجد ثلاثا وتوارى عن عيني

لم يبق غيرى امام الروح فتحركت نحرى ونظرت الى فماذا رأيت ؟ رأيتها قد تشكلت تماما بشكلى . وكانت تبدوا عليها علامات ! لرق

والكآبة ولكنها لم تفه بكلمة فناديتها قائلة

ـ اماه . اماه . كلميني يا اماه

لم تفه بكلمة وانما أشارت الى السماء ثم اختفت فجأة فوقفت أنا ما ئقة حائرة وسط الصحراء انظر الى الشمس التي كادت تحتجب وراء الافق والى القمر وقد طلع من ناحية الشرق ، والى كوكب المساء بينهما ثم بكيت وبكيت وبكيت لانفرادي ووحدتي ، اذ ما ذا تجد الروح البشرية من عشرة الشمس والقمر وكوكب المساء اذا كانت الروح التي صورت هذه كلها قد ذهبت ، وتركت كلا منها تنظر الي الاخرى دون أن يسمع لها صوت ؟

***

كانت هذه رؤياي التي طالما اطالت فيها الفكر عاما بعد عام اسائل الشمس والقمر وكوكب المساء عن سرها لدى دون أن افوز بطائل ان الروح هي التي تستطيع وحدها أن تفسر الغازها وهذه الروح لا تزال صامتة لا تحدثني بسبب الذنوب التي اقترفتها ولاني مثل أهله المصريين جبلت من الطين الذي يخفي بين جدرانه الكثيفة مصباح روحي المظلم ومع ذلك فسيأتي يوم يطفي فيه « نبل » الموت الذي اقت في طريقه المسدود ويجرف كل حائل من الطين فيتجلى اذ ذاك نور المصباح ثانية ثم تأتي الروح وتمده بالزيت المقدس وتنفخ فيه من انفاسها وفي هذه الانفاس سأدرك تأويل رؤياي واعرف رموزها

ولعمري بدأ الزمن يكشف عن خباياه لان هو من اخبرني ان الالهة التي كان يعبدها المصريون قد ماتت منذ الوف السنين تقريباً وقد

تلكأت زمناً في بلاد اليونان وروما ونقشت تماثيلها على توابيت الموتى الى أن اشرق كوكب دين جديد فاندثرت في ضوئه المقدس جميع المعبودات القديمة وتلاشت ولم يبق غير أبي الهول وهو يحدق النظر الى النيل ويناجي في سكون الليل المعبودة ايزيس لانها هي الطبيعة والمعبودة الوحيدة التي لا تفنى ولو تعددت أشكالها

نعم قتلت أنا عائدة معبودات المصريين القديمة بكرة النيران التي القيتها على رأس الفرس وملكهم . ولكن كلا لست أنا التي فعلت ذلك ولا أنا التي جررت الهلاك على رأس صيدا وقتلت ملكها تينس ، ولا أنا التي قتلت أوخوس [illegible] الاقدار التي استخدمتني سيفاً في يدها تسلطه على من تشاء

***

استيقظت فرأيت ظلمة الليل لا تزال مخيمة عدا نور القمر الذي أخذ ينسحب بعد ذلك وراء الافق ، وسمعت هواء الليل وهو يحرك الغاب [illegible] الكوكب المتلألئ في سمائه [illegible] في حقة زهرة تحت [illegible] تقطر هذه الاحيان [illegible] الروح في لذة لا تسمو . ولما كانت لا تعرف رجاء ولا خوفا وقد صعدت في هوة الظلمة العمياء

[illegible] حفيف [illegible] أسرار الارض الى أسرار السماء [illegible] كذاتها الحلوة

أقول الحق اني كنت [illegible] مضطربة الفكر قلقة البال لا ادري ماذا دهى . [illegible] كنت لا استطيع المقام طويلا في هذا المكان لان الفرس

سيسحقون عني عاجلا أو آجلا ويقتلني باغرس لاخفاء جريمته ملقياً على رأسي تبعة الجريمة التي ارتكبها

على ان هذا لم يخفني أما التي ملئت العالم وما فيه من الويلات والاهوال ونهيات تمسي لاجتياز عتبة لموت على أمل أن أجد وراءها حياة أخري خالية من الاكدار والاحزان . ولكن كان معي رفاقي الكهنة الذين اقسمت ان احميهم فأولوني ثقتهم كما لو كنت المعبودة نفسها . ودامت هلكوا جميعاً بلا مراء

اذن يجب أن احميهم اذا استطعت ، ولكن كيف ؟ ليست لدي سفينة تستطيع الفرار بها من مصر واذا فرض وكانت لدي فالي أين المفر أواه . ليت نوت معي فيسعدني بمشورته . انه حي لانه خاطبني [illegible] في المعبد [illegible] من لي أن أعرف أين [illegible] ؟ ربما خاطبني من [illegible] لا [illegible] مرة أخري

[illegible] في قلبي ثانية

— توسل [illegible] بالسفينة الحديدة وصل شرقا وغربا [illegible] و[illegible] تمال [illegible] حكمة نوت [illegible] ووطنها

[illegible] على هذا الحال مثل طفلة حائرة [illegible] في [illegible] وتظن ان [illegible] لادخال [illegible] وان [illegible] [illegible] . ولا عجب [illegible] الاحزان والمتاعب مثل طفلة صغيرة .

لكن [illegible] يلبون [illegible] الذين [illegible] لهم عن [illegible] ويسكون

ذلك من الحكماء والمتكبرين . وعلى كل حال أتانى الجواب وأنا فى حالتي هذه من السذاجة فقد رأيت عند طلوع الفجر كاهنة شابة مصرية قد حنت الرأس لى وخاطبتنى قائلة

« استيقظى أي ايزيس على الارض فان في الخارج رجلا يريد مخاطبتك وقد جاء الى هنا فى زورق ولما سأله الحراس خاطبهم بجميع الاشارات وفاه بالكلمات السرية التى لا يعرفها الا قليلون. ثم سأله الكهنة عن مهمته فأجابهم بأنه لا يبوح بها الا لمن تحمل رمز الحياة وتحجب رأسها بقناع كما تحجب الجبال قممها بالثلج الابيض ، الكاهنة المعروفة في جميع الهياكل بنت الحكمة التى تسمى بين الناس باسم عائشة ابنة يعرب

خامرنى الشك من نحو هذا الرجل فأمرت الكاهنة أن تعيد علي الكلمات السرية التي فاه بها كلمة كلمة الى أن فاهت في النهاية بلفظة لا تعرف معناها ولكني عرفتها وعرفت من الذي فاه بها

افعم قلبي رجاء [illegible] [illegible]

الكاهنة قائلة

. [illegible] الرجل [illegible] أولا ثلاثة من الكهنة يمرون حوله شاهرين سيوفهم

ذهبت الكاهنة ثم عادت وقالت ان الرجل ينتظر فى [illegible] الخارجية يحيط به الحراس كما أمرت فمررت [illegible] تلك [illegible] ضيقة تشبه غرفة كبيرة ، ثم دخلت من بابها المؤدى الى المعبد فى الداخل فرأيت أشعة الشمس المشرقة تدخل من بابها الآخر وقد سقطت على الرجل الواقف [illegible] وهو ينتظرنى بحراسة الكهنة الثلاثة

لم استطع رؤية وجهه ولكنه رأيته قد ارتجف وخر على ركبتيه ثم رفع يده على رأسه وحياني بسرعة مدهشه . وكانت حركته هذه كافية فعرفت من هو وأيقنت انه فيلو دون سواه

أمرت الكهنة الذين يحرسونه بالانصراف وأمرت الكاهنة التي رافقتني بالانزواء في الظل ثم تقدمت الى فيلو وخاطبته قائلة

ـ قم يا فيلو يا من بحثت عنك طويلا حتى كدت اعتقد انك انتقلت الى عالم آخر . قم خبرني من أين جئت ولماذا أتيت ؟

فاجابني بابتهاج قائلا

ـ أحييك أيها السيدة المبجلة ، انا عبدك بالجسد وشقيقك في المعبودة . اسمحي لي ان اقبل يدك لكي اعلم انك لا تزالين امرأة لا شبحاً

مددت اليه يدي فمسها بشفتيه باجلال واحترام ثم قلت

ـ لآن هات ما عندك ايها الصديق فيلو ماخبرني من أين أتيت وباية قوة سحرية وصلت الى هنا ؟

ـ جئت يا سيدتي من بلاد عتيقة الى الجنوب سنتقفين على شيء من تاريخها فيما بعد . لقد مكثت ثلاثة شهور أناضل واكافح في بحار شاقة تدفعني رياح مختلفة لكي أصل الى مصب النيل وابحث عنك

ـ ومن الذي أرسلك الي أيها الصديق فيلو ؟

ـ رسلني سيد معروف يعرفه كلانا

فسألته بصوت خافت قائلة

ـ هل يدعى هذا الرجل نوت ؟ واذا كان الامر كذلك فهل ابحرت الى هنا فوق بحار أرضيـة أو في البحار التي يسبح فيها « رع » في

العالم السفلي ؟

فهت بهذه الكلمات لانه خطر ببالي ان الرجل الجالس امامي ليس الا شبحاً أرسل لكي يدعوني الى قاعة أوزوريس . على انه [illegible] قائلا .

— لقد ابحرت فوق بحار أرضية أما بحار العالم السفلي فلا تزال تنتظر سفينتي . هذا هو برهاني .

ثم اخرج من بين طيات ثيابه ملفاً وضعه على جبينه احتراماً ثم ناوله لي ففضت أختامه وقرأت ما به على نور الشمس المشرقة واذا به ما يلي :

من نوت ابن نوت رئيس الكهنة وحارس الاسرار في [illegible] ايزيس وبنت الحكمة : يقول نوت

« لا اعرف النوم في منزلي الابدي . وقد ارتني روحي كل ما يجرى على نهر النيل فعلمت انك أطعت أوامرى التى اعطيتك اياها قبل فراقنا ، وعلمت انك انتظرت بصبر واناة وتحملت كثيراً من المشاق والتجارب . وسيصل اليك كتابي هذا في ساعة عصيبة تنجين فيها للمرة الثانية من النيران تاركة خلفك رماد أعدائك . تعالي الي الآن سريعاً . وسيكون فيلو الاخ المحبوب رمز الحياة مرشديك فيريك فيلو الطريق ويقيك رمز الحياة من جميع الاخطار . اطيعي اى لسان ايزيس وهاتي معك من بقى من خدام المعبودة . اقرئي خاتم نوت ولا تتلكأى »

قرأت الكتاب ثم اخفيته وسألت فيلو قائلة

— على أية أجنحة نطير الى نوت وهو في تلك البلاد البعيدة يافيلو ؟

— على أجنحة السفينة « هابي » التي تعرفينها والتي نجوت على ظهرها من أخطار عديدة ياسيدتي . انها راسية هناك بين الغاب متأهبة للسفر .

ـ كيف عرفت هذا الغاب ومن أين علمت اني مختبئة هنا ؟

ـ دعم نوت الطريق لي وقال لي انى سأجد كاهنة ايزيس في المكان الذى عثرت فيه ايزيس على قلب اوزوريس . لا تسأليني المزيد

سمعت قول فيلو فلهج قلبي بالشكر اذ ايقنت ان صلاتي التي ارسلتها على أجنحة الغاب اجيبت

قضينا هذا اليوم في شحن السفينة بكنوز ايزيس ورموزها المقدسة لان كميات كثيرة من الذهب والاواني النفيسة كانت اخفيت هنا بين الغاب أثناء الاضطرابات والقلاقل المدنية عدا تمثال صغير للمعبودة المصنوعة من الذهب والعاج و المرمر

حملت كل هذه التحف والمقدس في زوارق صغيرة الى السفينة « هابي » وخزنت في مخابىء تحت بضائع كثيرة اشتراها فيلو من موانى النيل . وكان قد جاء متنكراً في زي تاجر ومعه شحنة من القمح والاخشاب النادرة فباع تجارته هذه في الموانى حيث أخذ يجمع الانباء عما جرى في انحاء مصر ثم شحن سفينته ببضاعة أخرى وسار في النيل دون أن يرتاب في أمره أحد الى أن وصل الى جزيرة الغاب السرية التي أمره نوت أن يبحث عني فيها في هذا الشهر عندما يصير القمر بدراً . ولم يجد فيلو مشقة في الاهتداء الى الجزيرة لانه كان قد جاء اليها مرة بمهمة تتعلق بالمعبودة

جمعت الكهنة والكاهنة تلك الليلة ـ وكان عددهم ثلاثاً وثلاثين ـ

ثم خاطبتهم قائلة

ـ لم يعد في وسعنا المقام هنا في مصر فقد سقطت الالهة وهجرت معابدها وصار نصيب عبدتها الموت بالسيف أو النار . وقد دعانا نوت رئيس الكهنة من مكان بعيد وأمرنا أن نحمل عبادة المعبودة الى بلاد جديدة لا أعرف أين هي . وهذا فيلو رسوله وها هي رسالته فاقرأوها اذا شئتم. أما أنا فاني سأطيع الامر وابحر الليلة الى بحار مجهولة راجية أن تكون المعبودة لي مرشدة . وقد أمركم نوت بمرافقتى ومع ذلك ادع لكم الحرية فلكم أن تبقوا هنا اذا شئتم وعيشوا متنكرين كفلاحين وكتمة أو تعالوا معي اذا أردتم ولكننى لا أعدكم بشيء . فليتكلم كل منكم حسب ما تمليه عليه روحه

تشاور الكهنة فيما بينهم وبعد ذلك صرح الجميع الواحد تلو الاخر انهم يريدون مرافقتي مفضلين الموت معي والذهاب اتقياء الى ذراعي المعبودة ؛ على ان يعيشوا عيشة الذل والشقاء الى أن يهلكوا بحالة مملوءة بالتعاسة . وهكذا اقسم كاهن بعد آخر وكاهنة بعد أخرى قسمهم وقبلوا رمز الحياة المقدس وبعد ذلك قمنا بآخر حفلة لمعبودة ايزيس في أرض النيل ورتلنا بدموع سخينة ترنيمة الوداع

ولما فرغنا من ذلك ركبنا الزوارق فسارت بنا الى السفينة «هابى» فاجرب بنا على ضوء القمر وسارت في مياه النيل العميقة تسيرها قوة الرياح الى ان دخلنا القناة التى تصل بين البحرين والتى حفرها الفراعنة من قبل . وقد اجتزنا هذه القناة بمشقة لضيقها فى بعض الاماكن وانخفاض مياهها فى أماكن أخرى ووصلنا بسلام الى البحر الاحمر وودعنا مصر ومن فيها

قطعنا رحلتنا هذه دون أن يتعرض لنا أحد ولما اجتزنا البحيرات وصلنا الى مدينة صغيرة عند مدخل الفناء ابتعنا منها خبزا وسمكا ولحما وغير ذلك من المؤن التي سنحتاج اليها فى رحلتنا وجدنا هذه المدينة ملأى بالاشاعات على موت اوخوس وسمعنا روايات متعددة عن نهايته وكانت القصة التي صادفت هوى في نفوسهم قولهم ان المعبود «ست» اشترك مع الفرس فى حفلتهم ثم حمل اوخوس الى الجحيم على قرنى العجل ابيس الذى ذبحه وأكل لحمه وانتهك حرمة معبده . وقد ابتسمت عند ما سمعت هذه القصة ولو أنها لا تخلو من شيء من الحقيقة لانه اذا كان هناك جحيم فلا ريب فى ان روح اوخوس ذهبت بها لتلقى جزاءها العادل

***

قد مللت الكتابة فلا اذكر تفاصيل رحلتنا الطويلة ويكفى أن أقول أنها تكللت بالنجاح فكانت الرياح تدفع السفينة الى الامام يوما بعد يوم ولم تهب علينا عواصف ولا ارتطمت سفينتنا بصخور وكنا كلما عرجنا الى البر نطلب الماء وجدنا الارض خالية أو بها سكان مسالمون وهكذا أخذت الايام تنقضى على هذه الحال والسفينة تندفع بنا جنوباً شهرا بعد شهر . ولم تكن الرحلة خالية من دواعي التسلية فقد كنت فى ذلك المنبر نفسه الذى نزلت به أثناء رحلتي الى صيدا وعودتي منها فذكرت جميع الحوادث التى مرت بي على ظهر السفينة وفى هذه الغرفة عينها فتمثل لى تينس عند ما نزعت الورقة منه وهو جاث أمامي يكاد الخوف يذهب بعقله ثم ذكرت المعركة التى دارت على ظهر السفينة عند ما صعد الفرس الى ظهرها وصدهم كالكراتس عنها ثم مرضه بعد

ذلك وزياراتى له وهو جريح ثم وضع الخاتم المقدس فى أصبعه لا نتشاله من بين مخالب الموت

نعم ذكرت هذا كله وذكرت ان أذنى سمعتا كالكراتس وهو يدعوه في هزيانه باسم امرأة أخرى ويشكرها ففتح بذلك عيني الى حيلة قلبي

لقد صادقتنى جميع هذه الحوادث منذ أعوام فلما ذهبت الان وماتت صرت أذكرها بشىء من الحزن يشبه رقة نسيم المساء بعد شمس النهار المحرقة وحرها اللافح . ومع ذلك لا أنكر ان هذه الذكريات كانت تجدد قوتها من وقت الي آخر خصوصاً فى داخل زوايا القلب العميقة

مضي على ذلك كله وقت طويل . اذ لم تصر لحية فيلو بيضاء ويتجعد جلد وجهه بعد ان كان اذ ذاك أسود اللحية نضر الوجه ؟ ثم ألم أبلغ الان متوسط العمر بعد ان كنت شابة في مقتبل العمر مع أنى لا ازال أجمل امرأة فى العالم ؟ ثم ألم تثقل روحي بسبب المعرفة وتخترقها الاحزان بألف سهم ؟ لقد مات كالكراتس الان بلا ريب فذهبت الاحلام التي ولدها فى قلبي هذا الرجل دون غيره من الرجال الى حيث تذهب الأحلام فتتلاشى في الفضاء المجهول ، أو ربما يوجد ثانية بعد التغيير الذى يسمونه الموت

ثم أنا ، أنى أسير فى طريقي الى الامام تدفعني يد القدر ولكن الى اية نهاية ؟ لا أدرى ولا يهمني كثيراً . ان ادرى أن مهمتي قد انتهت الان على ما يظهر فتركت الحياة ومؤثراتها خلفي وصار من اللازم أن تنسج خيوط حياتى الباقية من مادة حقيرة فى بلاد مجهولة حيث أصلي تحت سماء غريبة الى أن يأتى الموت فيطويني تحت جناحيه ويحملني الى

أعماق ملكه الواسع

حسن ليكن ذلك فقد ملأت الحياة كما قلت وسئمت متاعبها وآلامها ومناضلاتها المستمرة لبلوغ مالا يستطيع رجل ولا امرأة ان يبلغه الا في الاحلام

تكلمت كثيراً مع فيلو ولكن حديثنا كان يتناول دائماً الماضي كالاخطار التي استهدفنا لها معاً أو عن حياته الاولى المملوءة بالمجازفات والاخطار أو عن حياتي . وكان فيلو هذا رفيقاً ليساً متوقد الذهن ، على شيء من المعرفة كذلك كما كان شجاعاً جاب كثيراً من اقطار العالم .

لم نخض في حديث ما يتعلق بالحاضر أو ما أصاب فيلو منذ أبحر مع نوت ولا مسألته عن المستقبل ولا الى أين نحن ذاهبون لانى كلما هممت بسؤاله عن احدى هذه المسائل كان يبدى اشارة يفهم منها انه مرتبط بقسم رهيب لم يسمح الا احترامه

وعلى ذلك لم أسأل فيلو المزيد فأخذت السفينة تسير ونحن لا نكترث بشيء مثل طفلة لا يهمها المستقبل ولا ما خبأته لها يد القدر فيه

الفصل الثامن عشر

قصة فيلو

كان القمر بدرا فكسي بنوره الفضي مياه البحر بحلة بديعة متلالئة و مد نوره الى الشاطيء فاضاء على أشجار النخيل المنزرعة على الشاطيء جلست علي ظهر السفينة على مقربة من غرفتي . وكان فيلو واقفا الى جانبي يراقب الشاطيء فسألته قائلة

ـ علام تبحث يا فيلو ؟ أتخشي وجود صخور تحت سطح الماء ؟

ـ كلا يا ابنة ايزيس ومع ذلك ابحث في الواقع عن صخرة معينة لابد ان نكون على مقربه منها الان اذ لم ا كن مخطئا في حسابي

.. بهذه الكلمة ثم صاح وهرع الى الامام فجأة وأصدر أوامره ، فوثب الرجال الى حبال السفينه وحول الجذفون مقدم السفينة بحيث اتجهت الان نحو الشاطيء وأخذوا يسيرون بنا الى الشاطيء

عاد فيلو الي ثم قال

ـ أنظري يا سيدتي . في وسعك ان تنظري الآن جيدا بعد ارتفاع القمر

ثم أشار الى رأس بارز من الصخر أمامنا

تتبعت يده الممدودة فرأيت صخرة عظيمة مرتمة فوق قمتها رأس منحوت ، أو ربما لم يكن منحوتا بل صورته الطبيعة على هذه الصورة وهو يزيد في حجمه كثيراً على رأس أبي الهول في مصر . وعلى كل الحال يبدو هذا الرأس بصورته المخيفة المريعة وهو يشبه شكله رأس زنجي

ينظر نحو البحر بعينيه الجامدتين

سألت فيلو قائلة

ـ ما هذا ؟

ـ هذا يا سيدتى حارس مدخل الاراضى التى ستذهب اليها ويروى فى القصص ان هذا الرأس صنع على شكل أول ملك حكم هذه البلاد منذ ألوف من السنين قبل ان تشيد الاهرامات . ويقولون ان عظام هذا الملك مدفونة فيه أو على الاقل تسكنه روحه ولهذا السبب لا يجرؤ أحد على ان يمس هذه الصخرة الغريبة أو يتسلقها

غادرنى فيلو بعد ذلك ليتولى الاهتمام بشئون السفينة لان المدخل المؤدى الى المكان ضيق وخطر . أما انا فبقيت جالسة فى مكانى أطيل النظر الى هذا المشهد الغريب الجديد

أخذت الحال [illegible] . [illegible] ساعة الى [illegible] نور . وكان [illegible] الصخرة [illegible] فرأيت اذ ذاك شيئا [illegible] بقصة فيلو عن الملك العتيق فقد شاهدت ـ هذا اذا لم اكن فى حلم من الاحلام ـ شبحا طويلا على قمة رأس التمثال ، يلبس درعا كانت تلمع فى [illegible] القمر الفضى . وكان الشبح متكئا على حربة طويلة فلما [illegible] مقابلة رفع [illegible] ثم [illegible] الى الامام قليلا كأنما يحدق النظر الى [illegible] وبعد ذلك رفع حربته ثلاثا وحنى رأسه ثلاثا تحية لى [illegible] من ذلك كله فرد ذراعيه واختفى عن الانظار

سألت فيلو بعد ذلك عما اذا كان قد رأى هذا الشبح أحدا [illegible] بلهجة الارتياب كأنما لا يريد الخوض فى هذا الموضوع قائلا

ـ كلا . ليس من [illegible] البحارة ان [illegible] ذلك الرأس .

نور القمر واذا فعلوا واتفق أن وقعت أعينهم على مثل هـذا الشبح الذى اخبرتنى به فانه ــ على ما يقولون ــ يقذف حربته نحوهم فيكتب عليهم الموت قبل مضى عام ومع ذلك لم يلق حربته نحوك يا ابنة ايزيس وانما حنى رأسه لك وحياك تحية الملوك وعلى ذلك لن يصيبنا أذى فابتسمت وقلت ان روحى المتصلة بالسماء لا تخشى غضب أى ملك من الملوك القدماء

كان هذا آخر ما جرى بيننا من الحديث في هذه المسألة ومع ذلك خطر ببالي خلال الاجيال التالية ان في قصة بيلو شيئاً من الحقيقة وان هذا الملك القديم ظهر على هذه الحال لكي يحيي التي قضت يد القدر بان تتولى الحكم على بلاده أجيالا عديدة

دخلت غرفتي ونمت فلما استيقظت في الصباح رأيت السفينة تمر من النهر الى قناة صناعية ضيقة تعذر السير فيها بقوة المجاذيف وعلى ذلك نزل فريق من البحارة الى البر وأخذوا يجذبونها بالحبال وهم يسيرون في طريق تماشي القناة

سرنا على هذه الحال ثلاثة أيام لم نقطع في خلالها مسافة طويلة لان جذب سفينة كبيرة كهذه كان شاقا فلما جن الليل القت السفينة مرساها بجانب الشاطىء

لم ير في خلال هذه المدة أحداً من السكان ولو اننا شاهدنا كثيراً من الخرائب والاطلال . والواقع كانت قفراء كثيرة المستنقعات الكبيرة لا ترى فيها غير الوحوش والافاعي الكبيرة التي لم أر لها مثيلا

أخيراً وصلنا في ظهر اليوم الرابع الى بحيرة حيث انتهت القناة . وكانت هذه البحيرة فيما مضى ميناء وقد شاهدنا أرصفة من الحجارة

شدت اليها زوارق صغيرة مهملة فقال فيلو يجب أن ننزل الى البر هنا ونسير براً ، فغادرت السفينة آسفة لان الايام التي قضيتها على ظهرها كانت سعيدة هادئة مثل واحة خصبة وسط صحراء حياتي الشاسعة الجدبة .

لم نكد نضع أقدامنا على الارض حتى ظهر جماعة من الرجال لا أدري من أين أتوا ، وكانوا حسان الوجوه تبدو عليهم سيماء الرزانة والقسوة يرتدون ثياباً بيضاء من الكتان كالكهنة . وكان رئيسهم يتكلم باللغة العربية العتيقة التي أعرفها .

وكان مع هذا الجيش المسلح بالحراب والقسي جماعة أخرى من الرجال يحملون المقالات . فاخبرني فيلو ان هؤلاء الرجال حرامى . على ان صبرى كان قد نفد الآن فتحولت اليه وقلت غاضبة

— لقد استودعتك نفسي الى الآن كما كتب علي فاترسل اليك أن تخبرني لماذا قطعت هذه الرحلة الطويلة في البحر الى أرض لم تطأها قدم انسان والى أين نحن ذاهبون مع هؤلاء البرابرة ؟ لقد جئتني في ساعة عصيبة حاملا رسالة معينة فسرت معك مختارة دون أن أسألك شيئاً عن معنى هذه الرحلة الغريبة أما الآن فاني اطلب اليك أن تفصح لي عن الحقيقة كلها

حنى فيلو رأسه أمامي وقال

— اعلمي أيتها السيدة المقدسة ان ما امسكته عنك كان بامر رجل عظيم هو نوت الشيخ لوفور والآن أقول انك ذاهبة الى بلاد عتيقة وبالحرى الى بلاد جديدة لملقى ذرت أستاذك وسيدى .

سألته قائلة

— هل سألقاه بالروح أو بالجسد ؟

ـ بالجسد يا سيدتى اذا كان لا يزال على قيد الحياة كما يقول هؤلاء الرجال . لقد خدمتك بامانة واخلاص الى الآن فاذا خذلتك [illegible] روحى ثمناً لخيانتي ولا تسأليني المزيد

فقلت باطمئنان

ـ هذا يكفى ، سر بنا

ركبنا المقالات ثم سرنا بعد أن وضعنا كنوزنا الثمينة فى تقلات أخرى حملها الرجال أمامنا وتركنا حرساً لخفارة السفينة « هابى » . وقد مكثنا اربعة أيام سائرين مثل قافلة من التجار فى طريق واسعة تجد سهولا ومستنقعات كبيرة وكما نبيت أثناء الليل فى [illegible] أو تحت مظلات جاء الرجال بها لهذا الغرض

وكانت هذه رحلة غريبة قمت بها يحيط بى رجال [illegible] صامتين يسيرون يسكون كالاشباح [illegible] الليل أكثر من [illegible] والحمرة خطر ببالي [illegible] [illegible] ليقودونا الى [illegible] [illegible] الاحياء [illegible] دب الخوف فى قلوب رفاق من الكاهنة [illegible] فكانوا يتملقون أثناء الليل ويتوسلون الى أن [illegible] الى بلاد عامرة [illegible] فكنت اغريهم واشجعهم قائلة انه عليهم أن [illegible] المعبودة قريبة منا هنا كما كا [illegible] ثم [illegible] فانه

ـ لا نستطيع أن نعرف [illegible] اذا ضاع [illegible] الخارف [illegible] لو كنا [illegible] والا [illegible] فى هذه [illegible]

ان تفتنم بى لا تقدر مهما بلغت شكوكهم من نحو أمور أخرى

وعلى ذلك واصلنا السير فاجتزنا بلاداً شاهدنا فيها أناساً آخرين من جنس هؤلاء الرجال الذين علمت فيما بعد انهم يدعون «امة حمير» وكانوا يقطنون القرى ، تحيط بهم قطعان مواشيهم أو يعيشون داخل المغاور والكهوف جماعات

أخيراً رأينا أمامنا جبلاً شامخاً تبدو آكامه العالية على شكل سور هائل لا تستطيع العين أن تحده . وقد اخترقنا هذا الجبل من ممر فيه فوجدنا بداخله سهلا واسعاً خصباً به مدينة أكبر من منف أو طيبة ، نصفها خرائب واطلال

اجتزنا قنطرة طويلة فوق مجرى عتيق من الماء ثم دخلنا أسوار المدينة وسرنا في [illegible] أقيمت على جانبيه، و[illegible] مهجورة تهدم بعضها الى [illegible] هيكل جبل يشبه [illegible] كل [illegible] يمتاز [illegible]

دخلنا هذا الهيكل [illegible] أن نزلنا من النقالات التي [illegible] ثم مررنا الى معبد داخلي ، ودخلنا غرفة مفروشة كلها [illegible] حيث [illegible]

[illegible] صغيرة منارة [illegible] الليل كان [illegible] كرسي [illegible] في [illegible] المهجورة [illegible] طولها [illegible] اذ رأينا [illegible]

ونغمات حلوة تغني لي . وصفوف من الارواح تظهر وتخاطبني فكانت تقص علي شيئاً كثيراً من قصص الاولين والآخرين وتروي لي تواريخ الشعوب وما نالت من عظمة ومجد وفخار . وأخيراً احتشدت وأخذت تحييني قائلة

— مرحباً أيتها الملكة المختارة . شيدي ما سقط واكتشفي ماضاع واحذي . في يديك القوة والفرصة ولكن حذار مما يغريك ، حذار من الجسد حذار أن يتغلب الجسد على الروح ، فبسقوط الروح تضيفين خراباً على خراب ، دمار الروح على دمار الجسد

قمت من رؤيى هذه فرأيت ميلو واقفاً أمامي فقلت له -

— اسعفني يا ميلو . لا استطيع أن احتمل شيئاً من هذه الاخطار والرموز . الم يحن الوقت الذي يجب فيه أن تتكلم أو تستهدف لغضبي قل لي لماذا جئت بي في هذه البلاد الغريبة البعيدة حيث يخيل الي انه لا بد لي أن أعش بين الاطلال والخرائب ؟

فاحناني قائلا

— لان نوت القديس أمرني بهذا يا بنت الحكمة ألم تعرفي رسالته التي عثرت عليها في جزيرة الذهب بمصر ؟

— ولكن أين نوت هذا ؟ لا أراه هنا . هل مات ؟

— لا أظن انه مات يا سيدتي ولو انه مات بالنسبة الى العالم . لقد صار يسكن بقعة صومعة في مكان محفوف بالاخطار على مقربة من هذه المدينة . سأرشدك اليه غداً اذا شئت وسترينه على هذه الحال بعد أن قضى أعواماً طويلة دون أن يغادر صومعته الا لكي يأتي بطعامه لحدى جدرانه

— قصة غريبة يا فيلو ولو انني لا أعجب اذا كان نوت قد صار ناسكا لان هذه كانت رغبته دائما . الان أخبرني كيف جاء نوت الى هنا وانت معه ؟

— تذكرين أيتها السيدة ان نوت ركب سفينتي منذ أعوام بعد سفر فرعون الى بلاد النوبة وسافر الى المدن الشمالية ليتفق مع الفرس على اعفاء الهياكل التي لم تمتد اليها يد الظلم والدمار

— نعم اذكر لك يا فيلو ، فماذا جرى في رحلتكما هذه ؟

— كاد يكون نصيبنا الهلاك لان الفرس ارادوا أن يصطادوا نوت ومن معه لكي يعذبوه حتي يدلهم على كنوز المعبودة ايزيس ويكشف لهم عن أسرارها . على أننا استطعنا الافلات من ايديهم بفضل مهارتي البحرية وشجاعة ذاك الجندي كالكراتس فوصلنا الي تلك القناة المعروفة باسم « طريق رمسيس » ومنها الى البحر الاحمر لاننا وجدنا أنه يستحيل علينا العودة الى النيل ثانية . وقد أمرني نوت بعد ذلك ان أبحر جنوبا في طريق كان يعرفها جيداً على ما يظهر اوارتها اياه المعبودة ، لا ادري . وعلى كل حال أطعت أمره الى أن وصلنا في النهاية الى الميناء التي تقوم في مدخلها تلك الصخرة المنحوتة على شكل رأس زنجي ثم مررنا في هذه الطريق بارشاد نوت أيضاً

فسألته بصوت يدل على عدم الاكتراث مع ان قلبي كان يلتهب شوقا الى معرفة جوابه ، قائلة

— وكالكراتس ؟ ماذا أصاب ذالكراتس الذي رافقكما في رحلتكما على ما أرى ؟

— هذا يا سيدتي ما أعرفه من قصة كالكراتس والاميرة امونارتس

ـ الاميرة امونارتس ! ماذا تعني بقولك هذا يا فيلو؟ لقد سافرت الى أعالي النيل «جنوبا» مع أبيها تحت — نبت

ـ كلا أيتها السيدة ، انها ذهبت في النيل «شمالا» برفقة كالكراتس أو برفقة نوت أو منفردة . لا أدرى مع من اختبأت لانى لم أرها ولم أعلم أنها على ظهر سفينتى الا بعد أن قطعنا مرحلة يومين في البحر وابتعدنا عن شواطيء مصر

فسألته ببرود بالرغم من قلبى المفعم بالغيظ قائلة

ـ حقاً ما تقول ؛ وماذا فعل نوت عندما وجد أن تلك المرأة على ظهر السفينة ؟

ـ لا شيء يا سيدتي ، غير أنه نظر اليها بارتياب وقادها الى الغرفة التي كنت تنزلين بها

ـ وماذا فعل الكاهن كالكراتس ؛ هل حاول التخلص منها ؟

ـ كلا يا سيدتى لان هذا كان مستحيلا ، مالم يلقها الى اليم . لم يفعل كالكراتس أيضاً شيئاً نفهم انه كان يخطط فقط ـ أن هذا ما رأيته

ـ اذن أين هي الآن يا فيلو وأين كالكراتس ؛ لا أراهما في هذا المكان

ـ لا أستطيع القول يا سيدتي ولكنى أظن أنهما ماتا وانضما الى احضان أوزوريس . فقد هبت علينا عاصفة بعد مضي بضعة أسابيع في البحر ، ودفعتنا الى جزيرة تجاه الشاطيء فاحتمينا بها . وهي جزيرة خصبة جميلة يقطنها قوم بسطاء . ولكن لما استأنفنا السفر ثانية لم نجد كالكراتس والاميرة امونارتس على ظهر السفينة ولم نستطع العودة الى الجزيرة ثانية للبحث عنهما بسبب الرياح التي كانت تدفعنا الى الامام .

وقد سألت عما أصابهما فعلمت من البحارة أنهما كانا يصطادان عندما جاء وحش من وحوش البحر وجذبهما فغرقا بلا مراء

— وهل تصدق تلك القصة يافيلو ؟

— كلا يا سيدتي . لقد ادركت في الحال أنها قصة أغري البحارة بالمال على ذكرها . أما أنا فاظن أنهما ذهبا الى الجزيرة في زورق من زوارق الذين يقطنون هناك لانهما لم يستطيعا على ما يظهر ان يتحملا عيني نوت الباردتين وهما تراقبانهما أولانهما أرادا أن يجنيا شيئاً من الفاكهة ولكني لا أرى داعيا لذلك بعد أن جاء سكان الجزيرة الينا بكمية كبيرة من الفاكهة

— لاريب في انهما فضلا ان يقطفا بايديهما يافيلو

— ربما ياسيدتي او ربما اراد أن يقيما هنيهة في تلك الجزيرة . وقد لاحظت على الاقل ان الاميرة أخذت ثيابها وحليها معها وهو مالا تستطيع عمله اذا كان وحش من وحوش البحر قد اغرقها

— هل انت واثق من انها لم تترك بعض تلك الحلي . . . في صيانتك يافيلو ؟ من الغريب جداً أن تأتي الاميرة امونارتس الي سفينتك ثم تغادرها دون أن تعرف عنها شيئاً

فتظاهر فيلو بالبساطة وقال

— لاريب في انه يحق لربان سفينة ان يأخذ اجره من الركاب ، وهذا ما اعترف باني فعلته ولكني لا ادري لماذا تغضب بنت الحكمة لان كاهنا اغريقيا وسيدة نبيلة تركا معا في جزيرة ربما كان لاحدهما او كليهما فيها اصدقاء

فاجبته قائلة

ـ الست الحارسة على كرامة المعبودة وشرفها ؟ ثم الا تعلم ان كالكراتس انذر نفسه بموجب قوانيننا للمعبودة دون سواها ؟

ـ اذا كان الامر كذلك فان ذاك الضابط او الكاهن يذكر عهوده فيعامل تلك الاميرة معاملة الاخت او الام . وعلى كل حال في وسع المعبودة ان تحمي كرامتها فلماذا اذا تكبدين نفسك كل هذه المشقة من اجلها ؟

الفصل الثامن عشر

قصة فيلو

« واخيراً لايبعد أن يكون كلاهما فى عداد الاموات الان وقدما حسابهما الى ايزيس في السماء

اخذ فيلو يهذي على هذه الحال ذاكراً اكذوبة بعد اخرى مثل عادة الاغريق فاصغيت اليه الى أن عيل صبري فقلت له كلمة واحدة فقط وهى .

ـ اذهب

فحنى رأسه وانصرف وهو يبتسم على ما أظن

اواه ! لقد ادركت كل شيء الان . لقد دبر نوت هذه المسيمة لكى يقصي كالكراتس عنى فلا تقع عيناى عليه ثانية . وقد علم فيلو بهذه الحيلة ومنه وقعت امورتس عليها كذلك فاغرت فيلو بالمال ـ دون معرفة نوت ـ لكي يخفيها فى السفينة الى ان يبتعدوا عن البر . ولا ادري هل كان كالكراتس مطلعا على هذه الخطة ولكن هذا لايهمني كثيراً . ثم وقعت الحوادث الباقية بعد ذلك . فظهرت امورتس على ظهر السفينة والقت شباكها حول كالكراتس الذى أقسم انه فرغ منها ، وليس من الصعب معرفة ماتم بعد ذلك : فقد ثار غضب نوت عليهما فلما سنحت لهما الفرصة فرا من وجهه الى الجزيرة حيث كان يمكثان بها الى ان يجدا سفينة تقلهما الى مصر أو اية بلاد أخري ـ هذه هى القصة بلا مراء وقد تبين فيما بعد أنني لم أكن مخطئة فيها

ذهبت اليه

حسن . لقد ذهبا وأرجو ان يكون الموت ادركهما لانه الستر الوحيد الذي يمكن ان يخفي خطيتهما ، اما انا فقد ابتهجت . بخلاصى من كالكراتس وحبه . على انى بكيت وانا جالسة على مقعدى اسفاً على ما لحق ايريس من المهانة ، او ترى هل كنت ابكي على حالى ؟ لاادرى وكل ما اعرفه ان دموعي كانت تنحدر على خدى . وفوق ذلك شعرت بوحشة فى هذه البلاد الغريبة

لماذا اتيت الى هنا ؟ لاادرى لقد امر نوت الذى يقسم فيلو انه لايزال على قيد الحياة ! لماذا لم يأت ليحييني ؟

غطيت عينى بيدى ثم ارسلت روحى الى نوت ، ناديته قائلة

ــ تعال الى يانوت ، تعال الى يا ابت المحبوب

فاذا سمعت ؟

سمعت صوتاً مألوفاً اذكره جيداً يجيبنى قائلا

ــ هانذا يا ابنتى

ارخيت يدي ونظرت بعينى المبللتين بالدموع فرأيت نوت أمامى واقفاً بثوبه الابيض ولحيته البيضاء وقد نحل جسمه حتى صار خيالا ولعمرى خيل الى هنيهة انى اري شبحه فلما تحرك وسمعت حفيف ثوبه ايقنت ان هذا هو نوت الذي قطعت الوفاً من الفراسخ لكي أجده

قمت وهرعت اليه ثم امسكت يده النحيلة وقبلتها فى حين كان يتمتم قائلا :

ــ اخيراً . اخيراً . يا ابنتى !

ثم مال ومس جبينى بشفتيه فقلت له

ـ لقد جاءني نداؤك في ساعة عصيبة فلبيت الدعوة وانيت . وقد جئت بدافع ايماني فلم القى سوءاً وها قد وصلت بسلام لان المعبودة رافقتني في رحلتي على ما اعتقد . اخبرني بكل شيء ياسيدي . فما هذا المكان ؟ وكيف جئت اليه ولماذا دعوتني اليه ؟

فجلس الى جانبي على المقعد وقال

ـ اصغي الي يا ابنتي: ان هذه المدينة تدعى خور وكانت فيما مضي مملكة على العالم ثم جاءت بعدها بابل وصور وطيبة واثينا . والى هذه المدينة يرجع اصل المصريين وغيرهم من الشعوب التي زحفت منها في العصور المظلمة البائدة. وكان اهل هذه المدينة يعبدون ايزيس في تلك الايام واتخذوها باسم «الحقيقة» وهي التي يعرفونها في مصر باسم «ممات» ثم حاد كثيرون من اولئك السكان عن عبادة ايزيس وهي ملتفة في وشاح «الحقيقة» وعبدوا الها اخر اسمه «ريزو» وهو صنم وحشي من أصنام الشمس كانوا يقدمون اليه ذبائح من البشر كما كان أهل صيدا يقدمونها الى «ملوخ» . نعم كانوا يقدمون الذبائح من الرجال والنساء والاطفال وتعلموا أيضا أن يأكلوا لحمهم. وكانوا يفعلون ذلك في البداية تنفيذا لاوامر دينهم ولكنهم صاروا فيما بعد يشبعون بها بطونهم . فلما رأت المعبودة ذلك ثار غضبها وضربت الشعب بوباء فتاك أبادهم على بكرة أبيهم فلم يبق منهم الا القليل . وهكذا سقطت خور بسيف الاله كما سقطت صيدا لسبب كهذا

فقلت بعال .

ـ خبرني عن كل ذلك فيما بعد وقل لي اولا كيف جئت الى هنا ؟

لقد ابحرت منذ سنين عديدة في النيـل لتتفق مع الفرس على اعفاء

الفصل التاسع عشر

صومعة نوت

ساد السكوت بيننا هنيهة اطرق كلانا في خلالها الى الارض . اخيراً سألني نوت قائلا

ـ اخبريني ماذا جرى في مصر بعد سفر فرعون الى الجنوب وهل لا يزال اوخوس على قيد الحياة ؟

فاجبته قائلة

ـ كلا يا ابت ، لقد مات اوخوس وكان هلاكه على يدي

ثم قصصت عليه ماجرى في هيكل ايزيس واحتراقه واحتراق الفرس الذين انتهكوا حرمته ، فتمتم نوت قائلا

ـ انه عمل عظيم ولكن يا له من عمل مريع !

ـ اذن يجب أن تتحمل روحك نصيبها من التبعة يا ابت لاننا سمعنا صوتك في المقصورة يخاطبنا عند ما ناديناك في ساعة محنتنا ولدي شهود يعززون قولي هذا وسمعوا صوتك كما سمعته

ـ ربما يا ابنتي . حقا خيل الى منذ شهور انك استنجدت بالسماء في ساعة خطيرة وخيل الي انني امرت ان اجيبك قائلا : « تقدموا ولا تخافوا » على انني لم اكن أدري شيئاً عن عملك ولو أنه خطر ببالي أنه يتعلق بحرق هيكل

ـ صدقت في زعمك هذا يا ابت فنفذت ارادة السماء كما يشهد بذلك اوخوس ومن كان معه من البرابرة ، أمام جميع الآلهة الى انقضاء

الدهر وقد ارتاحت الارض الآن من شرهم واذاهم وهم الآن في النار ، فلندعهم الآن مع تينس وغيره من الكهنة والملوك الكاذبين واخبرني أولا لماذا جئت الى هناك ولاى غرض استدعيتنى من مصر ؟ هل أردت أن تنقذنى من الموت ؟

ـ كلا يا عائشة أردت ان انقذك مما هو شر من ذلك . لماذا أمنع عنك نعمة الموت العظيمة التى سأنالها عما قريب ؟ لقد دعوتك تلبية لامر تلقيته وهو أن تحيى عبادة ايزيس هنا في خور مهدها القديم بعد أن تلاشت عبادتها في مصر . فقضت الارادة أن تقيمي هنا وتحيى هذا الشعب وتسيرى به في سبيل العظمة بمساعدة ملكة السماء التى ستقوده في النهاية الى المجد والفخار

ـ هذه مهمة خطيرة يا ابت ومع ذلك يحتمل القيام بها بمساعدتك واذا وهبتنى الالهة الحياة والحكمة

فهز الشيخ رأسه وقال

ـ لا تعتمدى على مساعدتى لان أيامى انقضت أو كادت تنقضى ألم يخبرك فيلو أنى طلقت العالم ومافيه ، انا الذى قضيت السنين الماضية فى سومعتى في مكان مخيف ، سابحا فى أمور عديدة مقدسة ؟

فأجبته بدهشة قائلة

ـ كلا يا أبت . لم يخبرنى شيئاً أو لم يخبرنى الا القليل طوع الامرك ، أو هذا ما أخبرنى به

ـ نعم هو ذلك والآن حان وقت عودتى الى سجنى الذى جئت منه حيث انتظر ذلك التغيير الذي يسمونه الموت . لقد لعبت دورى أما أنت فلا تزال مهمتك أمامك وسيساعدك فيلو على القيام بها

ـ لماذا تعيش فى ذاك المكان يا أبت وتتركني بلا مرشد من حكمتك ؟

ـ لانى هناك احرس سراً رهيباً عرفته منذ مدة طويلة ولا يهمك كيف كشف لى ولكنه أعظم سر في العالم باسره ـ سر الافلات من الموت والعيش على الارض الى الابد .

حدقت اذ ذاك اليه النظر وقد زعمت ان الشيخوخة والانقطاع عن العالم ذهبا بعقله . على انني سألته على سبيل التجربة قائلة

ـ اذا كان هذا السر عظيما الى هذا الحد فلماذا افشيته لى ياسيدى ؟

ـ لان هذا محتم علي . ولانى اذا لم اعمل اكتشفته بنفسك . ولما كنت لا تعمين عنه شيئاً فانك تقعين فى شرك بلا مراء وتلبسين ثوب الخلود ولهذا السبب لم اكن أريد دعوتك الى خور حتى تلقيت الامر بذلك مرتين

خطرت ببالي فكرة جديدة اهتزت لها روحي فقلت اذا كانت هذه القصة الغريبة حقيقية واذ كان فى هذا العالم باب يؤدى الى الخلود فلماذا لا اجتازه واصير في مصاف الالهة ؟ على انني لم اصدق انه حقيقة فقلت

ـ لا ريب فى انك حلمت فى عزلتك يا أبت أما اذا كنت واثقا من حقيقة ما رويت فلماذا لا ترتدى ، أنا ما ثمة ثوب الخلود هذا .

ـ لان كل من يتجرأ ـ رجلا كان أو امرأة ـ على أن يأكل من هذه الفاكهة المحرمة على الجنس البشرى هنا على الارض حيث الموت مكتوب على الجميع ، يكون قد تجرأ على دخول الجحيم سواء كان رجلا او امرأة

فأجبته قائلة وقد ابرقت عيناي

ـ أظن غير ذلك يا سيدي اذ اعتقد ان تلك المرأة أو ذاك الرجل يدخل المجد ويصير حاكما على العالم

ـ كلا ياعائشة لان السماء تقضي جميع اقدام البشر عن تلك الاكمة المريعة ، اكمة المجد والفخار . اصغي الي يا ابنتي وطهري روحك من جذور هذه الشهوة . لقد عهد الي ان اكشف لك عن هذا السر الذي اطلعت عليه لهذا الغرض على ما اعتقد لكي تظهري عظمتك برفضه لانه اروع ماقدمه اله الشر لاغراء المرأة الفانية

ـ او هل تكفي بقبوله يا ابت ؟

ـ كلا . كلا . فكري في الامر . هل تزعمين ان العالم مكان صالح للخالدين ؟ وفوق ذلك فان السر الذي احفره هو روح العالم لا الخلود القوة الخفية التي تستمد منها الارض قوتها . ولكن هذه القوة ستموت مع الارض لان هذه لابد ان تموت في يوم لا يزال خفيا في اعماق الزمن وعلى ذلك لا يصير الشارب من تلك الكأس خالداً وانما يعمر طويلا ويتلاشى في النهاية مع هذا الكوكب الزائل فلا ينجو من مخالب الموت وانما يتأخر اجله الى حين . وفي خلال ذلك يتحمل المتاعب والوحشة ويراقب الاجيال وهي تمر به تباعا وهو واقف غريب عنها مثل صخرة صورت على صورة انسان بعيد عن الحياة تمرق قلبه مطامعها وحبها وكرهها وآمالها ومخاوفها ، ينتظر وهو رجل تلك اللحظة المعينة التي تدار فيها الارض ويدركها الموت معه

« اني شيخ طاعن في السن ضعيف ، فاذا اردت ياعائشة ان تشربي هذه الكاس فان يدي الضعيفة لاتقوى على نزعها من شفتيك . على اني

اضرع اليك بحق حبي لك ان تنبذي هذه الفكرة جانبا واعلمي ان روحك خالدة وأن مسكنك ممد في السماء فلا تطمعي اذن في الباس جسدك ثوب الخلود لانك اذا قدمت علي ذلك يا عائشة تصيرين مثل مومياء مدفونة في قبر تبدو عليك مظاهر الحياة ولكنك ميتة وباردة من الداخل. اقسمي لي يا ابنتي ان تغلقي على هذا السر في قلبك وتلقي السم بعيدا عن شفتيك

فاجابته قائلة

انك تنطق بالحكمة كمن اوحي اليه بالحقيقة . لقد استقر رأيي على أن اطيع امرك ولكن اخبرني يا أبت ماهو هذا السر اذا كنت قد بحت لي بشيء منه فاخبرني كل شيء والا دفعتني الرغبة الى اكتشافه بنفسي

— اعلمي يا ابنتي أنه وجد على مقربة من هذه المدينة العتيقة بين الاكام الجبلية وفي اعماق الصخور نار دوارة تحترق هي روح العالم نفسها وقلبه الملتهب الذي يعطيها الحياة. ومع ذلك فليست هذه النيران نارا محرقة وانما هي جوهر الحياة فمن يغتسل فيها يمتلىء ذلك الجوهر ويبقي مادام باقيا

فسألته بانتباه قائلة

— أيهلك من يدخلها ؟

كنت اود أن يتسرب هذا الاعتقاد الى قلبك يا ابنتي فيذهب عني خوف عظيم ولكني لا اجرأ انا خادم ايزيس علي ان اكتم عنك الحقيقة لان في عملي منذ نكثنا بعهدي: وفي ذلك لا اخاطبك بلساني وانما بلسان قوة اعظم مني سلطانا وعلى ذلك يجب أن اكشف امام عينيك عن كل نقاب واريك الامور كما هي لا كما اريد ان تكون .

فاعلمي يا ابنتي ان تلك النار لا تهبك من يجرأ على الوقوف في طريقنا الاّ نعماً تعطيه الحياة ومنها قوة وجمال وحكمة لم يتمتع بها انسان . كما انها تلقي على رأسه ويلات وكوارث ومطامع وأهواء لم يشعر بها قلب بشر

« هذه هي الحقيقـة يا ابنتي فلا تسأليني كيف جاءتني ولا ما هو الصوت الذي يلقيها على مسامعك بلساني . كانت هذه الحقيقة منـذ لحظة سراً مكنوناً في صـدري لا يعرفها أحـد غيري فصارت الآن ملكاً لي ولك . ومع ذلك أتوسل الى القوة التي جئنا منها واليها نعود أن تعطيك القوة وتهبك الحـكمة لـكي ترفضي كل شيء بعد أن عرفت كل شيء وتسيري بصبر الى النهاية التي تصل اليها قدما كل حي

ـ هل لك أن تريني هذه النار يا أبت ؟

فاجابني بصوت خافت قائلا

ـ نعم اذا شئت . ولكن لماذا تريدين النظر الى ما يثير في نفسك روح الرغبة ؟

تغلب عليه الضعف اذ ذاك فخارت قواه ولو لم امسكه لسقط على الارض

***

أقام نوت ثلاثة أيام في "كور" تحدث معي في خلالها في أمور عديدة ولكنه لم يشر بكلمة الى نيران الحياة الغريبة كأنما كان هناك اتفاق عام بيننا على أن ندع هذه المسألة جانباً . وكانت لدينا أمور كثيرة فاخبرته بكل شيء وقع في مصر وغيرها ، واخبرته كيف أطعت كلامه ونفذت ارادته حرفياً فحفظت على عبادة ايزيس في هيكلها بالرغم من عداء الفرس

واحتفلت باعيادها فى مواعيدها ولو انى لم استطع مغادرة الهيكل أو تجاوز أسواره فقال نوت لما فرغت من حديثى

ـ اذن كنت حاكمة في منف وأنا كنت ناسكا هنا فى خور ، فكلانا والحالة هذه خدم المعبودة على قدر طاقته . لقد انتهت مهمتي أما مهمتك فلا تزال أمامك ولا تزال لديك قوة على القيام بها ولو ان أيام شبابك قد انقضت

فاجبته بشيء من الاسى والحزن قائلة

ـ نعم ذهب شبابى في خدمة السماء وبلغت الآن منتصف العمر ولكن ماذا اعطتني السماء بعد هذا النضال والكفاح ؟ لا شيء غير هذه الارض المهجورة الموحشة التى كتب علي أن أعيش فيها بين الاطلال والبرابرة وأن أعيد مجد دين اندثر واجمع هؤلاء الوحوش الى جيوش وأنظمهم وأسن لهم قوانين يطيعونها وأخوض غمار المعارك وازرع الاراضى وابني السفن وجمع الضرائب وانفقها بحكمة واعمل بدون انقطاع يوما بعد يوم . لا أجد في الليل راحة لما ينتظرنى في النهار من المتاعب . فلا بد لي والحالة هذه من أن اصير كاهنة وقائدة ومشرعة وحاكمة وزارعة وملاحة فى أرض غريبة لا صديق لي ولا وزير ولا حب أتمتع به ولا أطفال يعينونى فى شيخوختى أو يوارونى التراب هذا هو نصيبى الذى أعطته لي المعبودة جزاء متاعبى

فهت بهذه الكلمات بنفس متأثرة وقلب مفعم بالغيظ . على أن نوت أجابنى وعلى ثغره ابتسامة رقيقة قائلا

ـ ربما لحقك ما هو شر من ذلك وعلى كل حال لك فكر راجح وعقل مدبر دبى وسمحت أن تهيىء كل شيء من جديد كما تشتهين. انك

تتمشقين القوة وستكونين هنا حاكمة مطلقة وملكة مطاعة فلا تجدين من يقول لك كلا ولا منافساً يناوئنا لانك تريدين أن تعيشي عذراء أنت التي تزوجت الروح فسوف لا ترين هنا أحداً من الملوك أو الامراء الذين يدسون لك الدسائس لكي يحظوا بملاحتك ويخلقوا لك المتاعب. ثم كانت رغبتك أن تناجي الطبيعة والقوة المقدسة التي تخرج منها فهنا في هـذا المـكان المنفرد يوجد بيت الطبيعـة نفسها ، وفي العزلة والانفراد تأتي القوة المقدسة الى الارواح المتعبدة

« فعليك أن تشكري المعبودة التي أجابت دعواتك وحققت مطامعك . ستجدين الراحة الابدية في قبرك بعد انتهاء مهمتك والقاء اعباء متاعبك . وستصيرين مثلما قريب مثلي وعنـد ما يأتي ذلك اليوم ستجلسين في صومعتك المظلمة حيث تنتظرين النهاية بصبر وانا فاذ اعلمي يا عائشة ان الحياة ليست الا سلما يجب أن نصعد درجاته بالم ومشقة بعد أن نعاني ما نعاني من الاهوال والمتاعب

ــ واذا بلغنا القمة فماذا يكون بعد ذلك يا أبت ؟

ــ لا أدري يا ابنتي ولكني اعلم اذا اذا هوينا الى القاع تحتم علينا صعود الدرجات ثانية فقط ستكون درجات السلم في هذه المرة مملوءة بالاشواك .

ــ يلوح لي ان صومعتك التي تعيش فيها ليست مكاناً للسرور يا أبت

ــ كلا يا ابنتي انها مكان الالام والندم أما الفرح ففيما وراء ذلك. هذه هي فلسفة الحياة وتعاليم كل دين . فحملي اعباء الاحزان والاكدار أولا وبعدها تأتي الافراح أو ابتهجي وفرحي وبعدها تحملي عبء الاحزان .

ـ يالها من فلسفة محزنة يا أيت ودروس كالتي يتعلمها العبيد تحت ضرب السياط

ـ نعم ياعائشة ولكن لا مندوحة من تحمل آلامها كما يستطيع تينس وأوخوس وغيرهما ممن ذهبوا الى العالم الآخر أن يخبروك

نطق نوت بهذه الكلمات البليغة وهو على هذه الحال من الضعف والهزال مثل بندقة فارغة جفت حبتها اذا زرعت لا تنبت نباتاً . وقد استمر الشيخ يتكلم الى أن مللت حديثه المحزن فعادت بي أفكارى الى نيران الحياة التى تدور بقوة نشاطها تحت صومعته والتى اقسم بانها الجمال والشباب والمجد والسلطان لمن يجد لديه الشجاعة على مواجهة أهوالها .

رافقت نوت فى اليوم التالي الى صومعته التى حن الى هدوئها وسكونها على ما يظهر حتي انه لم يطق الابتعاد عنها ساعة أخرى بالرغم من توسلاتى اليه ، أنا التى يحبنى أكثر من كل شيء آخر فى العالم

وكانت الرحلة شاقة قمنا بها في نقالات سارت بنا الى السفح المنحدر العظيم الذي يحيط بسهل خور مثل سور منيع ، ثم تسلقنا أكمة في هذا السور ودخلنا باباً صخريا لا تراه العين من تحت الى أن وصلنا الى مدخل كهف ، وهنا لاحظت ان سكان هذه الارض يقدمون طعاما كثيراً الى نوت الذي يجلونه ويكرمونه . وهنا أيضاً أضاء الحاملون المشاعل لانارة الطريق الذى يخترق الكهف وكان طريقاً طويلا وعراً

أخيراً وصلنا الى نهاية الطريق فرأينا أمامنا هوة مريعة . وكان الماء يظهر على مسافة أميال عديدة تحتنا خطاً أزرق ، وتحت أقدامنا هوة سحيقة مظلمة . وكان هناك لسان طويل من الصخر يمتد الى

هذه الهوة ، تختفى نهايته فى الظلام فنظرت اليه بارتياب وقلت

ــ أين مسكنك اذن يا أبت وباى طريق تصل اليه ؟

فتبسم الشيخ وقال

ــ هناك وراء هذه الظلمة يا ابنتى . وهذا هو الطريق الذى يجب على الذين يريدون زيارتى أن يسلكوه

ثم أشار الى اللسان الصخرى الذى كان يرتعد من شدة الرياح وقال

ــ لقد تعودت السير عليه وفوق ذلك لا يمسنى عليه ضرر . اذا كنت تخافين السير فوقه فليس عليك الا أن تعودى من حيث أتيت قبل ضياع الوقت وربما كان من الحكمة أن تعودى

نظرت الى الصخرة المرتعدة أمامى ثم نظرت الى نوت وقلت فى نفسى

ــ كيف أخشى أنا عائشة التى لا تهاب انساناً ولا شيطاناً ، السير خلف هذا الكاهن الضعيف ؟ كلا ، لن أحجم عن تجشم الاخطار ولو كان فيها حتفى وهلاكى

وعلى ذلك حملقت فى وجهه وأجبته قائلة

ــ هيا يا أبت اسرع لان الهواء هنا يهب بارداً . سأسير أولا وأنت يا فيلو سر فى أثرى

وكان فيلو يرافقنى فى هذه الرحلة فنظر الى نظرة استفهام ولكنه لم يفه بكلمة لانه كان رجلا شجاعا تجشم كثيراً من الاخطار والاهوال أثناء رحلاته الطويلة فى البحار

وقف نوت صامتاً هنيهة ينظر الى السماء ثم سأل فيلو عن الوقت فلما علم انه لم يبق على اختفاء قرص الشمس وراء الاكام غير مدة وجيزة مشى بخطوات ثابتة فوق النتوء الصخرى فتبعته وتبعنى فيلو

وكانت هذه الرحلة مريعة في النور الضئيل الذى أخذ ينقص كلما تقدمنا فى قلب الهوة الى أن التحقنا بثوب قاتم من الظلمة . وفوق ذلك كان الساق الصخرى يضيق شيئاً فشيئاً والرياح التى تهب في الهوة تزداد شدة

على اننا واصلنا السير مائلين بأجسامنا نحو الرياح ، وبينا كنت أسير على هذه الحال شعرت بقلبي يقوى ويتشدد كما هي عادتي في وقت الشدائد والاخطار فوطدت العزم على أن أتغلب على كل ما يعترضنى من مشاق واذلل ما يصادفنى من عراقيل . وقد تكون النيران المقدسة التى كانت تتقد تحتنا هى التى نفثت في من روحها . لا أدرى ولكنى اذكر انى شعرت بفرح شديد قبل وصولى الى النتوء الصخرى الرهيب وكدت أغرب فى الضحك عند ما رأيت فيلو يزحف خافى بخطوات مترددة ويتمتم بأدعية وصلوات الى ايزيس وغيرها من معبودات الاغريق التى عبدها وهو طفل صغير

أخيراً وصلنا الى طرف النتوء الصخرى الطويل الممتد فى الظلام واذ ذاك تلاشى الضوء المنبعث من السماء فوقنا وتركنا فى ظلام حالك فجلست على طرف الصخرة المرتعدة وتعلقت بفيلو وكان قد حذا حذوى ثم خاطبت نوت وهو جاث على ركبتيه بجانبنا قائلة

ــ الآن ما العمل ؟ أرنا ماذا نفعل في الحال والا سقطنا الى هذه الهوة السحيقة

فاجابني نوت قائلا

ــ اثبتى وانتظرى

تشبثنا بالصخرة ولم تمض لحظة حتى حدثت معجبه اذ انبعث من

كوة في الاكمة المقابلة لنا سهم أحمر من النور الشديد مثل سيف ملتهب فاماط اللثام عن كل شيء يمكن رؤيته فرأيتنا رابضين على طرف الصخرة تحتنا هوة سحيقة وفوقنا فضاء شاسع . ثم شاهدت على مسافة أربع خطوات من طرف النتوء صخرة مرتعدة ضخمة تتصل بطرف النتوء بلوح من الخشب وضعه انسان كان يعلو وينخفض تبعاً لحركة الصخرة التي يستند اليها

صاح نوت اذ ذاك قائلا

ـ اتبعاني قبل أن يذهب النور

ثم سار بخفة فوق القنطرة الخشبية ووقف فوق الصخرة المرتعدة مثل شبح تضيئه نار او مثل ذاك الشبح الذي رأيته عند مدخل النهر فوق الصخرة التي نحتت على شكل رأس زنجي

تبعته وفيلو في أثري فهبطنا على ضوء الاشعة الاخيرة سلماً خشناً منحوتاً في طرف الصخرة المرتعدة من الناحية الاخرى وبعد هنيهة وجدنا انفسنا في كهف شاهدت فيه قزماً يحمل مصباحاً ، وكان غريب الشكل لا ادري من اين جاء فخطر ببالي انه لابد أن يكون شبحاً من عالم آخر ارسلته الآلهة ليقوم بخدمة نوت في صومعته . ومن الغريب انني لم استطع رؤية وجهه وكذا فيلو فقد كان هناك شيء يحجبه عن الانظار مثل قناع على انه سواء كان شبحا او روحا او انسانا فقد كان هذا القزم خادما ماهراً لاني شاهدت كل شيء معدا في الكهف او بالحرى في الكهوف التي كان يعيش فيها نوت ، فكانت النيران تتقد والطعام معداً والسرر مفروشة في الكهوف الداخلية

وكان الكهف الخارجي مهيئاً كذلك وقد رأيت في أحدى زواياه

تمثالا صغيراً للمعبودة ايزيس كان نوت لايفارقه مطلقاً . ويقال ان هذا التمثال كان يوحي الى نوت بما تريده المعبودة ويمده بالحكمة ولا ادرى مبلغ هذا القول من الصحة على انى اعلم أنه كان من دأبه نوت أن يصلى امام هذا التمثال العتيق الذى كان يجله ويحرص عليه اكثر من كنوز الارض . وقد تأثرت نفسى عند ماوقعت عيناى على هذا المألوف الذى رأيته في منزل ابى فى « اور ل » وفي غرفة نوت [illegible] فيلى وفي هيكل ايزيس بمنف وعلى ظهر السفينة هاى وفى الاماكن الاخرى التى تقلنا فيها معا

قال نوت :

ـ كلا وناما لانكما تشعران بتعب شديد

فعلت انا وفيلو ما امرنا به فأكلنا ورقدنا فى الكهوف الداخلية ونمنا وكان آخر شيء وقعت عليه عيناى قبل أن اغمضها للنوم ، نوت وهو جاث يصلى امام تمثال ايزيس . ولا ادري كم ساعة نمت ولكن لابد أن اكون قد استغرقت ساعات طويلة لانى لما استيقظت وجدت القوم قد اعد لنا طعاما آخر في الكهف الخارجى ثم شاهدت أيضاً نوت لايزل جاثياً أمام التمثال وهو مشهد اخاف فيلو وأثر فى نفسى كثيراً

قمت من فراشي وذهبت الى نوت فلما شعر بى وقف على قدميه لتحيتي ثم سألني هل استرحت جيداً فأجبته قائلة

ـ لقد نمت ولكن نومى كان مملوءا بالاحلام التى لااعرف لها معنى . وقد شاهدت فى خلال هذه الاحلام اشياء عن الماضي واخرى عن المستقبل وخيل الى انى رأيت نفسى اعيش فى معزل جيلا بعد جيل فى كهوف ومغاور كالتى تعيش فيها الان يا ابت

والظاهر أن قولى هذا اقلقه فاجابنى قائلا

ــ ادعو الآلهة ان تقيك شر هذا المصير يا ابنتى

ــ انها لم تشفق عليك يا ابت . لعمرى لا ادرى كيف تطيق العيش فى ظلمة هذه الحفرة المريعه التى تهب الرياح حولها لارفيق لك غير افكارك وقزم لاينطق بكلمة . كيف وجدت هذه الصومعة وكيف اتيت الى هنا وماذا دعاك الى اختيار هذا المكان الموحش واتخاذه صومعة لك ؟ اخبرنى بالحق ولا تخف عنى شيئاً لان العجب قد اخذ منى مأخذاً عظيما

ــ اصغى الى ياعائشة . لما التقيت بك في بلاد العرب كنت شيخاً طاعنا فى السن . وقد مكثت قبل ذلك سنينا عديدة رئيس كهنة ايزيس ورئيس السحرة في مصر ومع ذلك لم اولد مصريا ولم تطأ قدماي أرض النيل حتي بلغت الستين

ــ اذن اين ولدت يا أبت ؟

ــ هنا فى خور . انى آخر سلالة الملوك الكهنة الذين حكموا فى خور قبل الوباء العظيم وسقوط سيف الانتقام على رأس اهلها . وقد توارث اجدادى معرفة السر الرهيب الذى اخبرتك به وكان من عادتهم ان يأتوا الى هذا الكهف عند مايبلغون سن الشيخوخة وهنا يتولون حراسة النيران المقدسة الى أن تدركهم النهاية

« بهذه الوسيله يا ابنتى وقفت على هذا السر الذى اسره جدى لابى واسره هذا الى . وقد دعتنى المعبودة ، وجدى لايزال على قيد الحياة الى مغادرة هذه البلاد الفقراء والسفر الى مصر لغرض ادركت معناه ثم امرتنى ثانية بالسفر الى بلاد العرب لكى يعهد بتربيتك الى واخيراً

دعتني الى العودة الى خور فاتيت بصحبة فيلو . وقد وجدت حدى وابى انتقلا الى عالم آخر ووجدت صومعة حارس النيران خالية وعلى ذلك اقت فيلو حاكما على القبائل الوحشية التي تقطن حول اطلال حـور وجئت الى هذا المكان لاقوم بالمهمة التي قام بها اجدادي ثم ـ اموت

فقلت بغضب

ـ نعم لتموت وتنسانى يا ابت بعد ان وضعت على كاهلي عبئا ثقيـلا .

ـ كلا ياعائشة لم انسك عالما باننا سنلتقي ثانية . ولعمري كنت اراقبك دائما في صلواتي وآراك في متاعبك وآلامك وقـد سمعتك فى أحلامي تطلبين الارشاد فبعثت اليك بالجواب الذيأمرت بهثم ارسلت اليك فيلو قبل ذلك لكى يأتي بك الي كما امرت وهاقداتيت الي صومعتى وما أخبرتك بكل هذه الامور الا لاني رأيت في صلاتي الآنوأنت غارقة في نومك اننا لن نتكلم بعد الآن معاً . لقد حانت منيتي ولما لم يكن لي ولد بالجسدفقد اطلعتك أي ابنتي بالروح على السر فاذا ماصعدت روحي فتولي يا عائشة حراسة النار المقدسة وامكثي هنا الى أن تدركك الشيخوخة وتنتهي أيامك على الارض

فنظرت الى الجدران الصخرية المحيطة بي وانصت الى الرياح التي تهب بشدة في الخارج ثم سألته باستياء قائلة

ـ هل قضى على بذلك ؟

ـ نعم يا عائشة هذا ما قضى به عليك لان هذه هي المهمة الكبرى التي وضعت على كاهل روحك والتي ستجدين بها أجنحـة لتطيرى الى السماء والآن اعلمي انه ليس لحارس « النيران » أن يدخل « النيران »

بل عليه أن يراقبها ليمين الا . اصغي الي . سأخبرك كيف

ثم مال نحوى وأسر الكلمات السرية في أذني وأراني أشياء معينة خفية

تمتمت ورأيت خنيت رأسي ثم سألته قائلة

— واذا دخل حارس « النيران » « النيران » فماذا يصيبه ياحارس « النيران » ؟

فدب الرعب الى قلبه وأجابني قائلا

— لا أدرى يا ابنتي ولكن ستصير « النيران » في تلك الحالة حارسة عليه ، حارسة مريعة تقضي على خادمها الكاذب . لا استطيع أن أزيد على قولي هذا شيئاً آخر لانه لم يجرأ أحد من قبل على هـذا العمل ولو أن بعضهم استنشق جوهرها

— لقد اخبرتني منذ ليلتين يا أبت ان هذه النيران تعطي الشباب والجمال وعمراً لا يفنى للذين يشربون من كأسها . فاذا لم يكن قد دخلها أحد فمن أين علمت هذا ؟

— لان هذه هي الحقيقة يا عائشة ، وفوق ذلك لم أقل انه دخلها أحد فقد تكون هناك آلهة أو أصنام معروفة الآن في العالم دخلت هذه النيران اتفاقا . هـذه هي الحقيقة فصدقيها أو لا تصـدقيها كما تريدين ولكن لا تسأليني المزيد ولا تحاولى قبل كل شيء أن تحلي اللغز وأنت لا تزالين تلبسين ثوب الفناء

— دعني على الاقل انظر الى ما سيعهد الي بحراسته

— نعم لك ذلك . لقد جئت بك الى هذا المكان لهذا الغرض لانى اعتقد انك لا تريدين بعد رؤية نيران الحياة الاستحمام فيها . تناولي طعامك ثم تأهبي للذهاب معي

الفصل العشرون

مجيء كالكراتس

غادرنا الكهف بعد هنيهة ـ أنا ونوت وفيلو ـ يحمل كل منا مصباحا في يده . وكان نوت يسير في الطليعة يرتدي ثوبا [illegible] يحمل مصباحه في احدى يديه وفي الاخرى عصا طويلة كالتي يهش بها الرعاة على غنمهم في المراعي فوق الجبال . وكان في شكله هذا غريباً بوجهه النحيل ولحيته البيضاء المدلاة على عباءته السوداء وعينيه الواسعتين اللامعتين من طول النظر الى الظلمة فكان أقرب الى شبح منه الى انسان . ولعمري لن أنسى مظهره وهو يبحث عن السلم الصخري الممتد الى تحت الى مسافة ثلاثمائة خطوة الى دهليز طويل يؤدي الى غرف وراءها

وكانت تلك الغرف أو الكهوف عظيمة بحيث خيل الي أننا لسنا الا نملا يدب في أركانها الواسعة . وقد اجتزنا اثنتين منها ، يتردد صدى وقع أقدامنا في سكونها المخيف ثم وصلنا الى دهليز آخر . وهنا قال نوت مخاطباً فيلو

ـ امكث أنت هنا وانتظر الي أن نعود لانه ليس لك أن تري ما هنالك . واذا لم نعد قبل ثلاث ساعات ، وهذا محتمل لاننا ذاهبون الى مكان فيه خطر على بني البشر ، فعد الى العالم وقل ان الالهة أخذت نوت الناسك وطائشة رئيسة الكاهنات

جلس فيلو على صخرة ينتظرنا وقد ذهبت جميع دلائل الابتهاج

من عينيه ، وقد فعل ذلك على كره منه لانه كان لا يحب الرحلة الخطيرة ولانه كان قلقاً علي

خاطبته بصوت خافت قائلة

– لا تخف يا فيلو لان الساعة التي ستسقط فيها عائشة ثمرة ناضجة من شجرة الحياة لا تزال بعيدة

فقال فيلو

– ارجو ذلك أي بنت الحكمة ومع ذلك كوني على حذر لانني لا أعرف الى أين يقودك هذا الشيخ الذي صار شبحاً

ثم نظر الى نوت وهو يسير في النفق الذي انتهي اليه هذا الكهف يحمل مصباحه في يده

تبعت نوت احمل مصباحي كذلك ولكن لم تمض لحظة حتى لم تعد هناك حاجة الى المصباح لان المكان اضاء بنور وردي . وقد مكث نوت ينسل بخفة كالثعبان وأنا أسير في أثره الى قلب الضوء ، الى مكان مملوء بدوي شديد ومظهر بديع لا أدري عنه شيئاً

دخلنا كهفاً آخر ولكنه أصغر من الكهوف الاولى ، مفروش بطبقة من الرمل الابيض الناعم . وكان خالياً الا من جسم بشري صغير جاف لا أدري ان كان جسم رجل أو امرأة والظاهر ان صاحبة هذا الجسم أو صاحبه جاء يطلب نيران الحياة منذ ألوف من السنين ذات خوفاً ورهبة أو أن شعبه قدمه ذبيحة . وقد انساني جلال الموقف أن أسأل نوت عنه على انني بالرغم من ذلك كله شعرت بانقباض في نفسي وتشاؤم لان أول شيء وقعت عليه عيناي في هذا المكان الرهيب كان جسماً مقدداً ملقى منذ أجيال عديدة بينما تدور نيران الحياة على

مقربة منه الي الابد

وكان هذا الكهف مملوءاً بنور يشبه نور الفجر يشوبه لون أحمر ، ودوي يشبه دوي الف عربة حربية عجلاتها من حديد تسير مسرعة الى ميدان القتال . ولم البث أن شهدت الضوء يتضاعف ويشتد تطعنه سهام لامعة هنا وهناك في حين تحول الصوت الى دوي شديد كالرعد وخيل الي ان تلك العربات الحربية أخذت تداهمنا فصاح نوت اذ ذاك قائلا

ـ اجثى على ركبتيك يا ابنتي . النار آتية والمعبود قادم

جثوت على ركبتي فمست يدي اتفاقا ذاك الجسم المقدد الصغير فتحول الى تراب في الحال ولم يبق منه شيء غير خصلة من الشعر الطويل ، كان شعر امرأة بلا ريب

وقعت الاعجوبة بعد ذلك فرأيت أمامي عموداً من البهاء اللامع المتعدد الالوان وهو يصيح ويخور مثل الف ثور مسها الجنون . ثم خيل الي ان هذا العمود تحول الي رجل هائل الجسم بعينين من الزمرد كان يحدق المطر بهما الى مثل الجمر . وكان له ذراعان حمراوين كالدم مدهما نحوي كأنه يريد أن يجذبني بهما الى صدره الملتهب . نعم كان المشهد رهيباً ولكنه كان غاية في الجمال ولعمري لم أعرف معنى الجمال الحقيقي كلا ولا جمال الفجر أو غروب الشمس حتى وقعت عيناي على هذا المشهد

والظاهر ان اله الروح هذا كان يدعو روحي من داخلي كما يدعو الملك أحد رعاياه أو السيد عبده وقد تاقت نفسي الى اطلاق عنان نفسي لتضمها تلك النيران الى صدرها . ولعمري هممت بالوقوف على قدمي

ولكن نوت امسك بذراعي وخاطبني بجد قائلا ـ لا تدخلي

فخررت ثانية على ركبتي واخفيت وجهي على الرمال الناعمة

لا أدري كم مكثت على هذه الحال لان روح العظمة تملكتني فلم اكترث بالوقت فلما رفعت وجهي ثانية كانت النيران قد ذهبت وعاد المعبود الى مقصورته ولو أن المكان بقي مضيئاً بذاك النور الوردي

سار نوت بي الى الخارج فوجدت فيلو ممتقع الوجه مضطرب الجسم فاجتزنا طريقنا بخطوات بطيئة ومشقة الى أن وصلنا الى صومعة نوت فاسترحنا دون أن يفوه أحد منا بكلمة الى أن أخذني نوت الى جانب الغرفة وخاطبني قائلا :

ـ لقد رأيت يا عائشه ما كتب عليك أن تريه . وقد تملكك الاغراء في ذاك المكان بشدة بحيث لو لم أكن هناك لخضعت له ناسية توسلاتي وتحذيراتي مصرع اليك الآن أن تحرسي النيران في أيامك المقبلة ولكن لا تدعي عينيك تنظران اليها بعد الآن لاني أخشى من ضعفك في هذه المسألة بالرغم مما تظهرينه من الشجاعة في الامور الاخرى . وسوف لا ترين هذه النيران ما دمت حياً لانى أدعو السماء أن تقطع خيوط حياتك أولا

فحنيت رأسي ولكن لم أجبه بكلمة ولا هو طلب الي جوابا

ماذا حدث بعد ذلك ؟ اذكر اننا أكلنا من الطعام الذي أعده لنا ذاك القزم الذي لم تقع عليه عيناي بعد ذلك . وبعد ذلك أطل نوت من باب صومعته ونادانا لكي نأتي اليه مسرعين لان غروب الشمس كان قد حان ولا بد من عبور القنطرة عند سقوط الشعاع فذهبنا اليه فسار أمامنا يحمل مصباحه الى الصخرة المرتعدة التي كانت تترنح القنطرة

الخشبية فوقها

طوقني نوت اذ ذاك بذراعيــه وباركني ودعني وهو واثق بأنه هذه آخر مقابلة لنا على الارض . نعم كان هذا اعتقاده بلا مراء لاني رأيت الدموع تنحدر على خديه النحيلتين

طمن شعاع الشمس فجأه قلب الظلمة فعبرت أنا وفيلو القنطرة على نوره وسرت فوق النتوء الصخري بقدم ثابتة وقد ذهب عني كل خوف

كاد النور يذهب فتحولت لـكي ألقى آخر نظرة على نوت فرأيته واقفا وسط الضوء كانما يرتدي ثوبا من نار وقد وضع ذراعيــه على صدره ورفع عينيه الي السماء كما لو كان غارقا في صلاة عميقة ثم تلاشى النور بعد ذلك فجأة مثل مصباح اطفيء وحلت الظلمة الحالـكة

وصلنا الى السهل سالمين ، وفى أثناء الليل حملنا الحمالون فى النقالات الى خور . وكانت نقالتي تتمايل والحمالون يرتلون أغنيــة هادئة تبعث النوم ولكن النعاس ضل السبيل الى أجفانى فلم استطع النوم أنا التي كانت نفسي تتقد بنيران اليقظة

أواه ما هذه الاعجوبة التى رأيتها يا ترى ؟ انها منبع الحياة نفسها المتقدة في قلب الارض بعيداً عن أعين البشر . ولكن اذا كان الامر كـذلك فلماذا يتـكلم عنها نوت كما لو كانت منبعا للموت ؟ ولماذا ينهانى عن أن أذوق كاسها ؟ ربما لان الموت لا الحياة يقطن تلك النيران كما يدل على ذلك جسم تلك المرأة التي تحولت الى تراب عنـد ما مستها يدى اتفاقا

لا أدرى ولـكني أيقنت انى صرت من الآن فصاعداً مخطوبة لاله النيران هذا وانه لا بد أن أشعر يوما ما بقبلة زواجه الملتهبة

على جبيني

لما وصلنا الى خور عند طلوع الشمس أشرت الى فيلو أن يلزم الصمت فلا يفوه بكلمة واحدة مما رأى وسمع وبعد ذلك شرعت في القيام بأعمالي اليومية لبناء شعب جديد واحياء دين ميت ولكن دعنا من ذكر هذه المهمة . لماذا اذكرها بعد أن شاءت يد القدر أن ابنى أعمالي من الماء اوالرمال لا من الصخر والاحجار ؟ أواه ، لماذا تسخر بي هذه الجبال أيها القدر ؟ أواه ، لماذا أيها الحب القهار تستخدمني [illegible] لذلك حر مني وصرح عبادة ايزيس وتحولها الى تراب ؟ متى جاء كالكرانس بعد ذلك يا ترى ؟ أظنها مدة قصيرة ولو ان الزمن يفقد أهميته وطوله بالنسبة [illegible] الفي عام

كنت أرسلت فيلو الى الشاطيء [illegible] بالعالم لانى رأيت اننا نستطيع أن نجني من هذا [illegible] خيرات كثيرة لفتح المجال للتجارة مع القبائل التي [illegible] على مقربة من الشاطيء (لافيلو) ذات ليلة فأمرت بدخوله في الحال فقص علي جميع ماعمل أو عجز عن عمله فشكرته وأعطيته الاشارة لكي ينصرف . على انه تردد هنيهة ثم قال

— اعلمي يا بنت ايزيس انى لم أعد منفرد

— هذا ما اعلمه يا فيلو لانه كان برفقتك ناس كثيرون

ـ اعلمي يا بنت ايزيس اني أتيت معي بمن لم تكن [illegible] اياهم فاجبته بدون اكتراث قائلة

ـ انهم رسل بلا ريب من القبائل المجاورة للشاطىء .

ـ كلا بل هم قوم رحل تنقلوا كثيراً بين تلك القبائل وقد وجدتهم في سفينة حطمتها الامواج في حالة يرثى لها . انهم قوم من مصر

ـ من مصر : كم عددهم يا فيلو ؟

ـ تسعة يا سيدتي ولو ان معظمهم من الخدم

ـ حسن يا فيلو ، من دواعي السرور ان اتكلم مع قوم غرباء من مصر يآنسونني في وحشتي اذ لا ريب في انهم يحملون معهم أنباء النيل اكرم مثواهم يا فيلو واعطهم كل ما يحتاجون اليه وفي الغد قدمهم الي بعد انتهاء حفلة الصباح . لقد فات الوقت الليلة ولا بد انهم يشعرون بتعب .

تردد فيلو مرة أخرى ولكنه حنى رأسه بعد ذلك وانصرف وتركني في حيرتي لانني لاحظت في أحواله ما أثار دهشتي . على انني لما كنت قد أصدرت أوامري فانني لا أستطيع الرجوع عنها

بقيت في حيرتي هذه فلما اضطجعت للرقاد نشب الرعب أظفاره في قلبي : رعب لا أدري له كنهاً ولا أعرف له سبباً وشعرت بأن الشر يحلق فوق رأسي ويظللني بجناحيه السوداوين ، وانني سأرى شيئاً أو شخصاً ما ، لا أريد رؤيته وانني وقعت في شرك مجهول فصرت عاجزة لا حول لي ولا قوة مثل فريسة طبقت عليها الشباك من كل ناحية . وهي تكافح وتناضل عبثاً لاجل الخلاص . وفي الواقع طالما يلقي الخطر المحدق بنا ظله البارد على قلوبنا البشرية فترتجف عند مس ما تشعر به ولكنها لا تدري ما هو

خطر ببالي انني على وشك الموت ، وان يد الموت الثلجية قبضت

على قلبي ، وان هناك سفاحا فى زوايا الغرفة المظلمة التى أنام فيها قد استل خنجره ليدفنه فى صدرى وهو أمر كثير الاحتمال فى بلاد موحشة كهذه بين شعب مفترس من آكلي لحم البشر ؛ وضعت قدمى على أعناقهم . وأخيراً شعرت بان أرواح الملوك الذين حكموا هذه البلاد من قبلي أخذت تضايقنى طالبة أن أرد اليهم ملكهم المغتصب

ذكرت بعد ذلك تينس ، وقد علم فى النهاية ان يدي هي التي دفعت سيف الانتقام الذي غاص فى ظهره ، ثم ذكرت أوخوس الذى لا بد أن يكون قد زعم انى أنا الى دبرت له الكاس واحرقت رجاله . نعم تجمعت كل هذه الذكريات وحامت حولى مثل سحب قاتمة تلبدت فى سماء حياتى وتهددت شمسها بالكسوف

أخيراً ذكرت تلك القصة التى رواها فيلو عن الغرباء الذين تحطمت بهم سفينتهم وانقذهم من الهلاك ثم جاء بهم الى هنا فقلت فى نفسي من هؤلاء الغرباء يا ترى ؟ ربما كانوا قوما من السفاحين تنكرو بلباس الفاقة والعوز ، قوما أرادوا اطلاق روحي باسنة خناجرهم لكي لا تراقبهم هنا على الارض

خطرت ببالي كل هذه الافكار ولكن يا للعجب لم يجل بخاطرى ان هؤلاء الغرباء قد يكونون كالكراتس الاغريقى وأمو ارتس الاميرة المصرية عدوتى ، ولعمري كان فى هذا اسطع برهان على عمي عيوننا الجسدية .

أخيراً غلب علي النعاس فنمت ولكن كان نومى مضطرباً ولم استيقظ الا عند ما ملأت أشعة الشمس المرتفعة أفنية الهيكل . فقمت ولما كان اليوم يوم عيد ارتديت ثياب رئيسة كاهنات ايزيس وتحليت

الاخرى المقدسة والرموز الدالة على منصبي

ولما فرغت من ارتداء ثيابي الفاخرة جلست على كرسي الرئاسة في فناء الهيكل الداخلي أمام تمثال « الحقيقة » العجيب حيث قمنا بالطقوس الدينية بجلال وهيبة كما كنا نفعل في مصر

أخيراً انتهت الحفلة وباركت المتعبدين فانصرفوا عدا أفراد قلائل ظلوا هنا وهناك لمواصلة الصلاة، ثم هممت بالانصراف كذلك إذ جاءني فيلو وقال بخضوع وبسرعة مثل من يريد التخلص من مهمة لا يريدها

ـ ان الغرباء الذين حدثني عنهم أمس ينتظرون الامر بالمثول بين يدي الملكة

ـ دعهم يدخلوا

فهت بهذه الكلمة وأنا لا أدري على من ستقع عيناي وقلت ربما كانوا بعض أشقياء فروا من وجه العدالة الى هذه الارض البعيدة، أو تجاراً دفعتهم العواصف جنوباً، أو نفراً من البحارة المساكين نجوا من سفينة غرقت

جاءوا، وكانوا زمرة قليلة، وهم يلتفون حول أعمدة الهيكل ويسيرون بين ظلالها فلاحظت ببلادة عند خروجهم من بين ظلال الاعمدة أن الاثنين اللذين يسيران في الطليعة تلوح عليهما علامات النبل على نقيض الآخرين الذين كانوا يتبعونهما. وبعد ذلك حجبتهم الظلال مرة أخرى ولكنهم لم يلبثوا أن خرجوا ثانية الى النور أمامي وأنا جالسة على مقعدي أمام التمثال ثم وقفوا تكسوهم أشعة الشمس

نظرت الى الشخصين الامامين فرأيت انهما رجل وامرأة : رجل معتدل القوام وامرأة جميلة فرفعت رأسي ونظرت الى وجهيهما ثلث

الى الوراء في الحال وقد تملكتني الدهشة والرعب والذهول !

هل أنا في حلم يا ترى ؟ أو هل سحرت عيني روح ساحرة ، أو هل أرى حقيقة كالكراتس الجندي الكاهن الاغريقي ، وأمونارتس ابنة فرعون مصر ؟

حجبت عيني بيدي ، ومن خلال أصابعي أخذت أطيل النظر فيهما والفرس في وجهيهما . أواه . كيف استطيع ان اخطيء معرفتهما ها هو كالكراتس أمامي ، فتاناً في جماله كما كان ، كالكراتس شبه المعبود ، والى جانبه أمونارتس الاميرة المليحة التي لم تمس ملاحتها يد الزمن كأنها تقمصت نفسها منه بما تملكته من أبيها من السحر

لزمت الصمت هنيهة أخذت استجمع في خلالها قوتي واكبح جماح عواطفي المتأثرة وأخيراً تكلمت ببرود متظاهرة بعدم الاكتراث قائلة

– من أين جئتما أيها النبيلان ؟ ما اسماكما ولماذا تطلبان ضيافة ملكة خور بين الاطلال والخرائب ؟

كانت أمونارتس الجريئة ، لا كالكراتس ، هي التي أجابتني قائلة

– اننا سائحان أيتها الكاهنة من طبقة لا هي بالرفيعة ولا بالوضيعة ، أو بالحرى نحن من تجار بلاد الشمال ارتطمت سفينتنا بالصخور فتكبدنا متاعب وأهوالا عديدة الى أن انقذنا خادمك هذا وجاء بنا الى هنا

ثم أشارت الى فيلو وهو واقف على مقربة منهم وعلى ثغره ابتسامة بليدة واستطردت في حديثها فقالت

– انما ننتمي الى الفينيقيين واسمي (ثم ذكرت اسماً نسيته) ولما كنا نشكو الفاقة والعوز بعد أن ثار شعبنا علينا جئنا نطلب اليك المعونة الى أن يبتسم لنا الدهر ثانية بعد أن عبس في وجهنا

ـ لك ما تريدين أيتها السيدة ولكن اخبريني ما علاقة أحدكما بالآخر . هل أنتما أخ وأخت على ما أعتقد ؟

ـ نعم أيتها الكاهنة لقد رجمت حقاً . انما شقيقان كما يستدل على ذلك من اسمنا

هذا قول غريب أيتها السيدة اذ كيف يلد أبواك فتاة سمراء من نملاء بلاد النيل ورجلا جميلا يشبه أبوللو الاغريقي شكلا وطلعة ؟ ثم كيف تحلك أخت تاجر فينيقي شعرها بتاج ذهبي هو رمز الملكية المصرية ؟

ثم أشرت الى الثعبان الذهبي فوق جبينها

فقالت أموبارتس دون حياء

ـ للدم حوادث غريبة مدهشة أيتها الكاهنة ، فاحياناً يولد الطفل شبيهاً لاحد أجداده وأخرى يولد شبيهاً لجد آخر فتجدين طفلا أسمر وآخر جميلا . أما هذا التاج فقد ابتعته من تاجر عربى دون أن ادرى شيئا عن أصله أو أهميته

أخذت أموبارتس تهذى بمثل هذا الكلام الى أن اسكتتها كالكراتس وهو يتمتم قائلا

ـ كفى !

ثم خاطبني قائلا

ـ لا تكترثى أيتها الملكة بكلمات هذه السيدة فقد اضطرتنا الظروف فى المدة الاخيرة الى ذكر روايات غريبة حسب ما تقتضيه الساعة التى نحن فيها . والآن اعلمي يا سيدتى انا لسنا من أهل فينيقيا ولسنا من بيت واحد ولكننا ننتمي الى الاغريق والمصريين بحسب

الدم ، ولسنا فى علاقتنا أخا وأختا بل رجلا وامرأة

لم تكد هذه الكلمات تطرق باب مسامعى حتى وقفت دقات قلبي ، انا التي كنت ارجو الى تلك الساعة أن تغرق بينهما ايزيس وحرمة العهود التي قطعت ؛ ومع ذلك أجبته بهدوء قائلة

ـ حقا ما تقول أيها الرحالة ؛ اذن اخبرني بماذا تدينان ومن الذى عقد لكما عقد الزواج ؟ هل وضع كاهن « زوس » يد أحدكما في يد الآخر ام وقفتما جنبا الى جنب أمام مذبح هاتور ؟

أخذ كالكراتس يبحث عبثا عن الجواب وبينما كان في حيرته هذه ضحكت وقلت

ـ اعلن أيها النبيلان انكما لم تتزوجا قط وانكما لستما زوجين بل عاشقا وعاشقة تآلفتما حسب ناموس الطبيعة

اطرق كالكراتس برأسه وبدت علامات القلق في عيني أمونارتس بالرغم من شجاعتها المعروفة واقدامها

لم اطق السكوت بعد ذلك فقلت

ـ أي كالكراتس الاغريقي يا من كنت فيما مضى ضابطا فى جيش فرعون وكاهنا لايزيس وأنت أي أمونارتس ابنة نخت ـ نبت وأميرة مصر ، لماذا تهذيان بمثل هذه الاقوال على أمل أن يخدعا من لا يستطيع أحد أن يخدعها ؟ لا ريب فى انكما اغريتما فيلو هذا بالمال لكى يكتم الحقيقة كما اغريتماه من قبل لكى يخفى سيدة معينة في سفينته وينزلكما الى البر معا فى احدى الجزر

احمر وجه كالكراتس وقال متلعثما

ـ اذا كان الامر كذلك فقد خان هذا الرجل عهدنا وافشى سرنا

ـ كلا . لم يفش سركا لانه حريص على أسرار من يخولون له السطايا.
ليس كذلك أى فيلو خادمى ؟

انتظرت الجواب ولكن لم اسمع شيئا لان فيلو كان قد ذهب مستطردة فى حديثها قائلة

ـ كلا . لم يفش فيلو سركا ولم يكن ثمة داع لذلك . ولان اخبريني أيتها الاميرة أمونارتس من أين جئت بهذا الخاتم الذي أراه في أصبعك؟
فاجابتنى قائلة

ـ هذه هدية سيدي لي

ـ اذن اخبرني يا كالكراتس من أين جئت بهذا الخاتم وهل نقش عليه من الداخل باللغة المصرية علامات معناها « ابن الشمس الملكى »؟

ـ ان هذه الاشارات منقوشة عليه أيتها الملكة . وقد البستني هذا الخاتم كاهنة قديسة أنقذت حياتها فى معركة أصيبت فيها بجروح شفيت منها بفضل هذا الطلسم . وقد علمت فيما بعد ان فى هذا الخاتم سر الشفاء لانه مصنوع على شكل الخاتم الذي صنعته الام ايزيس ووضعته كهدية حبا في يد أوزوريس الميت قبل أن تبعث فيه روحه ثانية ، وربما هو الخاتم بعينه لدى تركه أوزوريس على الارض عند صعد الى السماء . لا ادرى

أخذ كالكراتس يتعثر فى نطق هذه الكلمات كما تتمتم دابة منهوكة القوي تحمل عبئا ثقيلا وتسير في طريق وعرة الى أن مللت حديثه فقاطعته قائلة

ـ لهذا اعطيت يا كالكراتس هذا الطلسم العتيق الى المرأة التى تهواها او التى تهواك راجياً أن توثق أسراره عرى قرانكما الدنس . ويحك

أيها الكاهن الساقط المنبوذ كيف تجرأت على ارتكاب هذا العمل الممقوت كيف تضع في اصبع عشيقتك خاتم ايزيس الذي اعطته أياك كاهنتها لتنشلك من مخالب الموت ؟

ومدت جهاطفها الى الامام بحيث لم يعد ظل التمثال خافي يحجبني ثم انحرفت عن وجهي ونظرت الي عينيه فقال

ـ هذا ما خطر ببالي ولو انه من كان يحلم أن بين هذه الاطلال والخرائب . . . انها كاهنة ايزيس ، انها ابنة ازيس ، بنت الحكمة دون سواها فقد عرفت صوتها بالرغم مما تظاهرت به

ثم خر على ركبتيه وسجد حتى مس جبينه ارض المكان وأخذ يتمتم قائلا

ـ أقتليني ايتها الملكة وانتهي من أمري واعفي عن هذه السيدة وأرسليها الى بلادها . الذنب ذنبي لا ذنبها لانها لم تكن كاهنة

احدقت أمونارس النظر الى عينيها الجريئتين ثم صاحت قائلة

ـ لا تصدق الى هذا الحد ياسيدي لان هذا يكاد يكون مستحيلا اتذكر جيداً انى رأيت تلك الكاهنة التى تسمى « ايريس على الارض » في الايام الماضية لاسيما فى تلك المادبة التي اماطت فيها اللثام عن وجهها لترى نفس ملك صيدا ملاحتها . ولكن تلك الساحرة كانت امرأة جميلة جداً وعلى ذلك لا اصدق ان هذه الحاكمة بين الاطلال والخرائب هي تلك الكاهنة نفسها لانه لا يستطيع احد أن يقول عن هذه المرأة انها جميلة . انظر انها عجوز متجعدة الوجه والعنق

« أن الساحرة التى أذكرها كانت ذات ثغر وردى اما هذه المرأة فلها شفتان نحيلتان متقعتان وكانت أيضاً ذات عينين واسعتين فتانتين

بخلاف عيني هذه السيدة فانهما صغيرتان لالون لهما تقريباء تحتهما خطوط سوداء تدل على الشيخوخة . كلا ياسيدي، نعم أن الوقت يحدث تغييرات غريبة فيمن تجاوزوا عنفوان الشباب ولكن هذه السيدة التي تخفي شعرها الاشيب تحت قلنسوتها لايمكن أن تكون هي نفس الكاهنة الفتانة التي رأيناها مرة في قصر فرعون والتي كانت على ما اذكر تنظر اليك كثيراً

اصغيت الى هذا السم الزعاف الذي كان يتدفق من قلب وضيع مفعم بالغيرة ثم تبسمت ومع ذلك أقول الحق ـ لاني لا ادون هنا غير الحقائق ـ أن بعض هذه السهام المسمومة اصاب المرمى . فقد كنت أعرف جيداً أن الرائع الذي كنت اعتج به لم يعد لي كله وأن مر الليالي وكر المشي وهموم الحياة وتحول قلبي عن الامور الدنيوية الفانية الى الامور المقدسة فوق ما احمله من اعباء الحكم والحكمة والانتقام التي القتها يد القدر على عاتقي ـ كل ذلك قد اذبل زهرة شبابي واطفأ نور تلك الملاحة التي كانت لها الامر والنهي والتي اذهلت قلوب العالم وفوق ذلك كانت امونارتس لاتزال طفلة عند ما كنت شابة نامية الجسم وعلى ذلك تفوقني بميزة الشباب هذه التي منحتها اياها الطبيعة

تبسمت مع ذلك وبينا كانت الابتسامة لاتزال مرتسمة على ثغري خطرت ببالي فكرة بذرت في قلبي بذرة قضت يد القدر أن تنمو وتزهر وتحمل في ساعة لم تولد بعد ثمارها المريعة

اواه . اذا كنت قد اخطأت في حق السماء وعصيت اوامر القديسة نوت مرشدي وسيدي فلتتذكر الالهة المحصية أن سوط لسان هذه المرأة المؤلم هو الذي دفعني الى العمل

خاطبت كالكراتس بصوت رقيق قائلة

ـ قم يا كالكراتس . أن الكلمات التي سمعتها في حق التي كانت رئيسة لك لا تروق في مسامعك ولا اريد أن أجيب عليها . لا انكر أن في تلك الكلمات شيئاً من الحقيقة ومن دواعي فخري أن اكون قد ضحيت ملاحتي للملكة السماء التي اعبدها وليست هذه التضحية الا واحدة من شيء كثير . ومع ذلك اتوسل اليك يا كالكراتس أن تمسك لسان هذه السيدة فلا تكيل للمعبودة عبارات الامتهان والسخرية كما كالبتهالي انا كاهنتها وارجو أن تذكرها بانها ارتدت ثياب ايزيس مرة وعبدت في هيكلها والتجأت اليه ثم ذكرها أن المعبودة تراقب كل ما يجرى من السماء بالرغم من احتراق هيكلها في مصر وانها تستطيع ان تضرب اذا شاءت . الآن اذهب واسترح يا كالكراتس وخذ عشيقتك معك وسفتكلم مما فيما بعد لانني لا اريد أن ارجم بمثل هذه الكلمات التي تقذفها النساء في الاسواق الى منافساتهن

الفصل الحادي والعشرون

الحقيقة

طلب كالكراتس مقابلتي في اليوم التالي فلما علمت انه ينتظر مقابلته في غرفتي الخصوصية وامرته بالجلوس فاطاع واذ ذاك أخذت أراقبه. وقد سقطت اشعة الشمس المنبعثة من النافذة على شعره الذهبي ودرعه اللامعة التي ضعضعتها السيوف والرماح فكان في زيه هذا كملك الرجال.

اخيراً قال كالكراتس

ــ أن السيدة امونارتس مريضة من عناء السفر الطويل واظن أنها اصيبت بذاك المرض العادي الذي يكثر بين السكان على الشاطىء لان وجهها متورد ويديها ساخنتان وعلى ذلك لم تستطع الحضور اليك ومع ذلك كلفتني أن اشكرك على ضيافتك وأن اسألك الصفح والمغفرة عن الكلمات القاسية التي فاهت بها أمس لان هذه الكلمات لم تخرج من قلبها بل من دمها المحموم .

ــ حسن . اني اعرف هذه الحمى ولو اني في مأمن منها وسأرسل اليها الدواء ومعه امرأة متدربة لتقوم بخدمتها . قل لها لا تخف لانه ليس بالمرض الخطر . الان تكرم الى ضيفي كالكراتس بذكر قصتك اذ لديك على ما اعتقد شيء كثير تقصه على مسامعي منذ افترقنا في هيكل منف، فقد كانت مهمتك في ذاك الوقت مرافقة نوت لانك رأيت من مصلحتك أن تغادر المدينة لاسباب تعرفها وقد كان في عزمك على ما اعتقد أنه

لتذهب منفرداً ، لا برفقة هذه الاميرة التي ترافقك الآن

فاجابني بحزن قائلا

— نعم هذه هي الحقيقة ياسيدتي ولم اعلم أن الاميرة التي اشرت اليها على ظهر السفينة «هابي» الا بعد أن هربنا من النيل وخرجنا في عرض البحر فراراً من الفرس

— لقد فهمت يا كالكراتس ، ولا يسعني الانكار ان يد القدر اظهرت قسوى او بالحري اظهرت رحمة بك عند ما شاءت ان تختفي تلك السيدة خطأ في السفينة التي ابحرت في النيل شمالا بدلا من ان تركب السفينة التي اقلت والدها تخت — نبت الى طيبه وبلاد النوبة [illegible] مني يا بنت الحكمة . وستخبرك الاميرة اموناردس نفسها انها كانت تعرف جيدا السفينة التي ركبتها في حين كنت اعتقد اعتقادا وطيدا انني ودعتها الى الابد . ثم نبذت اموناردس الامل بعرش ابيها وبكل شيء آخر واستهدفت لكل خطر وركبت السفينة « هابي » بعد ان احتالت على امرأة اخرى البستها ثيابها وازلتها [illegible] جاشية ابيها تخت — نبت

— ان هذا عمل ينطوى على الجرأة ولعمرى أحب الشجاعة يا كالكراتس ، ومع ذلك ماذا كان غرضها ؟

— هل هذا سؤال تلقينه على يا سيدتي مع انك تعرفين جيدا ان المرأة الكبيرة القلب لا تحجم عن شيء في سبيل الحب ؟

— سواء كان لي ان القي هذا السؤال اولا فقد حصلت على الجواب يا كالكراتس . يجدر بك وايم الحق ان تحب وتجل من نبذت كل شيء لتفوز بما تظنه أعظم من كل شيء ولو تطلب ذلك عارها والقضاء على روحك

بالذين يغرون الكهنة والكاهنات ويحولونهم عن الطريق السوى

ـ نعم يا كالكراتس اعرف أن مثل هؤلاء يموتون بالنار او يتضورون جوعاً أو يهلكون في سجن ضيق لامنفذ فيه ومع ذلك سلكت سبيل الجهالة لانك لم تقدم صلواتك الى نوت الذي لا يستطيع وحده ان يمنحك الصفح والغفران اذ من يدرى ماذا يكون جوابه

فسألني بلهفة قائلا

ـ هل سبق السيف العزل : أن لكل ذنب صفحا وغفرانا فلماذا لايكون لذنبي ، ولكن من يمنح هذا الغفران ؟ لا ادري اين ابحث عن نوت ، اذا كان على قيد الحياة ؟

ـ نعم لكل ذنب مغفرة يا كالكراتس ولكن ذلك لايكون الا بثمن ، فقبل كل شيء يجب أن يقدم ذلك الذنب قربانا على المذبح لان الصفح لايكون الا للذنوب الميتة اما الذنوب الحية فلا صفح لها ولا غفران وانما هناك ندم فوق ندم . وفيما عدا ذلك لايزال نوت على قيد الحياة وهو يعيش على مقربة من هذا المكان فهل تريد ان تبسط له قضيتك وتسمع حكمه ؟

فاجابني بتراخ قائلا

ـ لا أدرى . اصغي الى اى بنت الحكمة . انى في موقف غريب فانا اهوي امونارتس بجسمي ومرتبط بها ولكن الامر ليس كذلك فيما يتعلق بروحي ، فروحانا بعيدتان جداً على ما اعتقد . اواه ، اشهدي ياسيدتى ان قلبي يتطلع الى امور عالية وكم اود أن اسبح الى بحار بعيدة لايزورها انسان ولكن هناك دائما تلك الحبال الجسدية تجذبني دائما الى الشاطىء . اما امونارتس فانها ترى غير هذا الرأي فهي تحب لكي

تستريح في ميناء العالم الجميل أو تتجول على شواطئه الرملية . وهي تقول دائما . « دعنا من السماء ، هنا الأرض السعيدة تحت أقدامنا وحولنا خرير مياه الافراح والسعادة وأنا جميلة وأحبك . واذا كانت هنالك آلهة وهذه الآلهة منتقمة فان ساعتها على الاقل لم تحن بعد ؛ فساعتنا هذه ملك لنا فلنرتشف كاس الهناء التي تقدمها لنا فاذا شربنا كل ما فيها من خمر ثم تكسرت فستبقى ذكرياتها معنا على الاقل . ماهذه الالهة التي تسعى وراءها بهذا الجنون؟ وماذا تعطيه للانسان غير الموت والعوز والامراض والاحزان ثم انذارات الويل لمن يعصى لها أمراً ؛ هل هنالك آلهة أخرى غير التي صنعها الانسان مدفوعا بخوفه ورعبه؟ الانسان الذي لا يقتنع بغذاء الطبيعة فيضيف اليه السموم القتالة » ـ هذه حججها التي تعزز بها رأيها يا سيدتي.

— اخبرني يا كالكراتس هل ولد لكما أطفال

— نعم يا سيدتي ولد لنا طفل جميل ولكنه مات من المتاعب التي جففت لبن أمه

— وهل لما نظرت أمونارتس الى طفلها وهو ميت ثلاث تحاججك على هذه الحال قائلة ان ليس هناك آلهة وانه لا أمل للانسان ؟

— كلا . انها لعنت الالهة وكيف يلعن الانسان ما لا يعتقد بوجوده ؟ واذكر أيضاً انها بكت وتوسلت الى تلك الالهة أن تعيده اليها وقلبه الصغير لا يزال يخفق . على انها سرعان ما نسيتها وقدمت ذبيحة الى « روحها » المألوفة وطلبت اليها أن تهبها طفلا آخر ، وقد اخبرتني ان توسلاتها هذه في دور التنفيذ

— هل تستخدم أمونارتس السحر مثل أبيها

— نعم يا سيدتي . والظاهر انها لم تستخدمه عبثاً ولو انني لا اعلم ولا أريد أن أعلم شيئاً من استخدام تلك الارواح الخبيثة . أظن انها ورثت هذه العلوم عن أبيها الذى علمها اياها : وهى طفلة صغيرة فشبت عليها . وعلى كل حال اعرف انما كلما وقعنا في مشكلة أو خطر أثناء رحلاتنا الطويلة كانت تنادى تلك الروح التى تستخدمها فتنفرج كربتنا ويستقيم طريقنا

— كما ستقام طريق ضلالك من هذا العالم الى العالم الآخر يا كالكراتس حسن . لقد تكلمنا كثيراً ووصلنا الى مسألة تحير الهة الحقيقة نفسها . والآن خبرني هل تريد زيارة نوت وتقف على رأيه في كل هذه المسائل؟ أظن انه الوحيد الذى يستطيع أن يرشدك ومع ذلك افعل ما تشاء

أطرق كالكراتس ملياً ثم رفع رأسه وأجابني قائلا

— نعم أريد . سنذهب بعد ابلال أمونارتس من مرضها

— ان نوت شيخ هرم وقد تتأخر أمونارتس فى شفائها فمن اصالة الرأي أن نذهب فى الحال يا كالكراتس

— كلا يا سيدتي . لا أستطيع . ان أمونارتس غريبة التصورات ولا أستطيع أن أتركها وحدها . ثم تزعم انهم سيدسون لها السم ولعمري تزعم انها ذاقته فعلا

— اذن قل لها أن تقدم ذبائح غالية الى تلك الروح الخبيثة وأن تتوسل اليها لكي تحميها . في وسعي بلا مراء أن اقسم بانه لا يمسها أذى مدة غيابك في حضور القوم الا على يد الالهة التى تنكرها ايها المتقي يا كالكراتس

حنى رأسه وهم بالإنصراف ولكنه انثني راجعاً بعد أن سار خطوة أو خطوتين ثم قال

ـ الآلهة . الآلهة التي اعتقد وتعتقدين انها اله واحد ـ ايزيس ملكة السماء . اتوسل اليك أن تخبريني ما هي ازيس ؟

فكرت هنيهة قبل أن أجيبه على هذا السؤال الغامض الذي لم احاول من قبل حله في كلمات وأخيراً قلت

ـ ان الناس في الشمال والجنوب والشرق والغرب يعبدون هذا الاله أو ذلك ومع ذلك هل رأيت من بين جيوشهم الجرارة رجلا رأى الهه الهم الا في حلم أو غيبوبة ، أو هل اذ حاول أن يصوره أمام عينيه ، يستطيع أن يفعل أكثر من أن ينحت صورة من الحجارة أو الخشب ؛

ثم أشرت الى تمثال الحقيقة خلفي وقلت

ـ انظر . هذه هي ايزيس . انها رمز جميل محجبة الوجه . انها تقطن داخل كل روح ومع ذلك لا تقطن روحين بشكل واحد . انها غير منظورة لا تستقر في مكان ومع ذلك تسمع الدعوات . وليس عرشها في السماء بل في كل مخلوق حي . وسنراها يوما ما ولا نعرفها ومع ذلك ستعرفنا هي . هذه هي ازيس التي لا شكل لها ولكنها في كل شكل ، الميتة ولكنها حية في كل حي ، التي تولدت في عقل كاهن مفتون ولكن هي الحقيقة الوحيدة العظيمة

ـ اذ كانت هذه هي ازيس فما هي الآلهة الاخري اذن ؟

ـ انها كلها ازيس وازيس هي كلها . فالآلهة المديدة التي يعبدها الناس في مختلف انحاء العالم ليست الا الهاً واحداً متعدد الشكل أو بالحرى

حى الماث : اله الشر واله الخير : هورس وتيفون اللذان يتقاتلان الأبد لامتلاك أرواح المخلوقات التي تصيفها تلك القوةُ المقدسة الغير المنظورة التى تحكم منفردة بجلال مروع وتطل من مسكنها المجهول على الالهة والناس الذين هم من صنع يديها ، وعلى العوالم السابحة في الفضاء وعلى المسافات الشاسعة بينها . كانت هـذه هى الحال في البداية وستظل كـذلك الى الابد . هـذا ما تعلمته يا كالـكراتس عن نوت الحكيم ، والان الى الملتقى

فنظر الى وتمتم قائلا

ـ أواه . يا ابنة ايزيس . أواه يا بنت الحكمة

وكانت علامات الحزن تتجلى في عينيه وصوته فقلت فى نفسي انه عاد يهابنى ويخشانى ولكن كيف يستطيع أن يحب من يخافها لان الحب والخوف صدان لا يجتمعان ؛ ويحى لماذا حدثته عن تلك المسائل الروحية العالية التي لا يستطيع أن يدركها أو يقيم لها وزناً ؛ ربما كان السبب انى وجدت نفسى منفردة وانه ليس لدى شى استطيع ان اسكب فيه حكمتى فلم أجد وعاء من الذهب أو المرمر فسكبتها في وعاء من الخزف

يجدر بى وأيم الحق أن أتعلم درساً من تلك الاميرة المصرية التى عرفت جيداً تسوس رجلا مثله ، وقف كئيباً حزيناً ينظر الى الطريق المنحدر الوعر المملوء بالاشواك والحفر ، المحفوف بالاكام المخيفة التى لا يمكن العودة من هاوياتها ، الطريق الذى تتوق قدماه الى وطئه ولـكنهما لا يجرآن على السير فيه لانهما فى حاجة الى مرشد

لقد قادته أمونارتس فى طريق آخر ، طريق النزعات البشرية وأمرته أن يكف من النظر الى السماء وأن يجدل أكاليل الزهر لتحلى بها جبينه

وجبينها . ثم تحدثه عن أعمالها اليومية وعن أفراح الامس وما في الغد من آمال ووعود وفي خلال ذلك يجدل حبال سحرها الذي تسلحت من أبيها على أمل أن تقيده بها الى الابد ، نعم أوقعته تلك الاميرة في حبائلها كما تقع الذبابة في نسيج العنكبوت وأخذت تعدد عليه القيد قليلا قليلا الى أن رقد في النهاية ينظر اليها بلا حراك مثل مومياء مدرجة في أكفانها

خطرت ببالي مثل هذه الافكار وقد ألبستها ثوباً جميلا ومع ذلك لا انكر ان العوامل التي دفعت هذه الافكار الى نفسي كانت شتى الاسباب والمصادر واعني بها عوامل الغيرة التي تشعر بها امرأة نحو أخرى ولعمري علمت هذه الحقيقة التي لا يمكن اخفاؤها بعد الآن والتي لا استطيع أن اتجاهلها أو أغض النظر عنها لانني شعرت بها تماما بينما كان كالكراتس يقص علي روايته . نعم أهوى هذا الرجل . وأحبه منذ وقعت عليه عيناي لاول مرة هناك بعيداً في فيلي أو بالحري منذ خضعت لعوامل الطبيعة وقبلته في شفتيه

أواه . لقد سحقت هذه الحقيقة سحقاً ودفنتها في اعماق قلبي ولكنها قامت الآن وتمثلت أمامي مثل شبح قام من القبر وأخافني بعينيه المروعتين

لقد وقعت في شرك غرام هذا الرجل وعشقته ولا مفر من حبه دائماً أما هو فانه يخافني ومع ذلك يجلني كما يجل روحا ظهرت له ولكنه لا يهواني لانني فوقه بمراحل

نعم دبت في قلبي عقارب الغيرة منها اذا امكن أن يغار الكبير من الصغير. لانه اذا كانت الشقة واسعة بيننا فقد كنا مع ذلك امرأتين

تطمع كلتانا فى رجل واحد . ولم تكن روحي تشعر بغيرة لانني كنت واثقة بأن الغلبة ستكون لها فى النهاية لمناعتها وعدم تأثرها بسهام التغييرات الجسدية ومع ذلك شعر جسدي بالغيرة فقد اخبرنى ان امونارتس ولدت له طفلا وانها ترجو أن تلد له آخر وأنا أيضاً أتوق الى أن اكون أم ولده اذ اليس صدقا ان هناك ناموساً لا يتغير وهو ان الرجل يحب المرأة لذاتها وان المرأة لا تحب الرجل فى الغالب الا لانه قد يصير أبا لطفلها ؟

هكذا . هكذا . دعني افكر . لقد حببت هذا الرجل وأردت أن اتخذه لنفسي وان ارفعه حتى يصير معى فى مستوى واحد اذا كان ذلك مستطاعا كما أردت أن أرشده بنور كوكبي . ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟

لقد زعمت تلك المرأة فى حماقتها انى سممتها أو انى أريد ذلك . نعم انها تجهل عائشة فزعمت انى احذو حذو الخصي الفارسي فادس لها السم واتخلص من منافسة لي . ولكن كلا لن يكون ذلك . اذا لم استطع أن أفوز بقوتى في معركة خالية من الغدر والخيانة اذن فليكن نصيبي ما استحق من الخذلان والفشل . واذا كانت روحها فى قبضة يدي بحيث استطيع ان اقضي عليها اذا شئت فان تلك المشيئة لن تكون في مخيلتي ولن تظهر فى شكل عمل

اذن ماذا يمكن عمله ؟ انها صادقة فيما قالت فقد شرع سوس الشيخوخة ينخر جسمي ولم تعد ملاحتى كما كانت . نعم صرت عجوزاً فى حين لا تزال زهر شبابها نضرة وعلى ذلك اذا أردت الغلبة يجب أن أضع حداً بينى وبين الشيخوخة

آه . نيران الحياة !

نيران الحياة التى يقولون انها تمنح العمر المديد والشباب والملاحة الفتانة التى تحسدها افروديت نفسها . ثم من قال ذلك ؟ انه نوت الفيلسوف الذى يعرف كل شيء . ولكن نوت لم يدخل هذه النيران فمن أين علم أسرارها اذا لم يكن بالوحي ؟ لقد نهانى على الاقل عن أن اذوق كاسها ولكن قد يكون السبب فى ذلك خوفه ان تقضى على أنا التى يريد أن يجعلنى خليفة له فى انشاء مملكة عظيمة هنا يعبد أهلها ايزيس

ومع ذلك قد تكون القصة صحيحة والا لماذا عاش نوت في تلك الصومعة الموحشة يحرس الطريق الى النيران ؛ لقد سمعت بقصص تماثل هذه تروى في العالم اذكر منها قصة من قصص الكلدانيين تقول انه كانت هناك شجرة تسمى شجرة الحياة فى حديقة معروفة طرد منها ابوا الانسان مخافة أن يأكلا منها ويصيرا من الخالدين وقد ذكر كهنة اليهود في أورشليم وهولى بعدم هذه القصة وشرحوها لي وعلى ذلك لا ريب في انه كانت هناك « شجرة الحياة » أو « نيران الحياة » وضعت الالهة عليها حراساً مخافة أن يصير أبناء الانسان فى مستوى واحد معها

اني أعرف أين تنمو تلك « الشجرة » أو بعبارة أخري أين تتقد تلك « النيران » . على ان نوت نهانى عنها فهل استطيع اذ اعصى لاستاذي وسيدي أمراً ؟ انه الان طاعن في السن وسأتولى حراسة النيران بعد موته فهل ليس من حق الحارس أن يذوق ما يحرسه ؟

لقد قال نوت ان الالهة قضت بغير ذلك وقد يكون على حق فيما قال ولكن ماذا يكون اذا اخترت أن أقف في وجه الالهة ؟ اذا كانت

الالهة قد افشت أسرارها فهل تغضب على من يستخدمون تلك الاسرار؟
لتغضب الالهة ولتصمع شر ما تستطيع أمام خير ما استطيع
طالما سئمت نفسي أعمال الالهة وملت أوامرها أو أوامر كهنتها المنطوية على التعصب التي تكال على رؤوس الشعوب في هذا العالم .
ألم يكف الموت ونقمة الحياة لاطفاء نار شهوتها حتى انها تملأ الايام الشاقة بين الحياة والموت بالمتاعب الثقيلة فتحرم هذا وتحرم ذاك وتعرقل طرق الناس وتضع على رؤوسهم اكاليل الشوك
اذا كانت قصة نوت صحيحة فما العمل ؟ سادخل النيران واخرج منها بهية جميلة ذات ملاحة تفوق حد الوصف ، شابة صغيرة بيني وبين الموت مراحل لانهاية لها . وليس علي بعد ذلك الا ان انتظر مدة وجيزة حتى تموت موبارتس ومتى ماتت أو سئمت نفسها الحياة في هذا المكان الموحش وغادرته لكي تلتجيء الى غيره - ولكن كلا لان كالكراتس في الحالة الاولى يكون قد مات ايضا أو بلغ الشيخوخة وفي الحالة الثانية تأخذه معها
. لقد توفقت الى حل جميل . اذا دخلت النيران وخرجت منها دون ن يمسني اذى فيجب ان يدخلها كالكراتس بعدي لاننا نصير في هذه الحالة متعادلين
ولكن ما العمل اذا اختارت امو بارتس ان تدخل نيران الحياة كذلك لانها مغرمة بالسحر ولايمكن ان تتنازل عما في يدها ؟ هل احسر فصيق أو يتحسن مركزى يا ترى ؟ كلا . سيتسع نطاق المعركة هذا كل ماهنا لك . وفوق ذلك سأكون حارسة النيران فلي ان احرم هذا وامنح ذاك . ولكن لندع هذه المسأله جانبا الى ان يحين وقتها

لان البت فيها سيكون كما أريد ، لا كما تريد امورنارس

كانت هذه خطتي ولكن هنالك فكرة أخرى وهي ما العمل اذا كانت النيران قتالة ؟ ليكن ذلك . هل وجدت الحياة لذيذة حتى أنى [illegible] انتقل من هذا العالم الى عالم آخر انسى فيه [illegible] راتس وامورنارتس وما في الارض من تعاسة وشقاء ومطامع واماني ومخاوف ، فقط هل تنسي كل هذه الاشياء ، من المحتمل ان تبقى ذكراها فتوخز القلب بسهم امضي حداً

لم يجب تجشم الاخطار . ما الحياة الا سلسلة طويلة من الاخطار [illegible] ان اضيفه الى حلقاتها حلقة أخرى ؟ كلا . لست خائفة

على هذا استقر الرأى ومع ذلك شعرت في نفسي باكبر هيبة ، العبء الذى تلقيه يد القدر على كاهل الذين يستخفون «بالمجهول». قد تبتسم الالهة من عمل ينطوى على الشجاعة وتغض النظر عن مخاطرة ولكن من يدري كيف تنتقم يد القدر العمياء ممن يتحدون أوامرها التى لا ترد ويسرقون اسرارها المكنونة في صدرها ؟

لقد نسيت هذه المعضلة التى كتب على ان اعرف حلها فيما بعد

الفصل الثاني والعشرون

حذار !

- مرت الايام ومضت مدة طويلة قبل ان تبرأ امونارتس من مرضها نعم انقضى زمن طويل قبل ان تغادر الاميرة مسكنها وكان منزلاً عتيقاً على مقربة من الهيكل كان يقطنه قدما جماعة من نبلاء حور . وكانت تحيط به الحدائق أو بالحري آثار حدائق لان كثيراً من اشجارها شاخ وتلاشى ، فكانت امونارتس تسير تحت ظلالها وتتنقل في انحائها دون ان تغادر مسكنها التأتى الى زيارتي

بيد ان كالكراتس كان يكثر التردد علي . ولما كان قد خرج عن حظيرتنا فانه لم يشترك معنا في عبادة ازيس وكثيراً ما كنت اراه واقفا بعيداً يراقب موكبنا وهو يسير بين اعمدة الهيكل. وقد شهدته مرة ينظر الينا وعيناه مغرورقتان بالدموع فاشفقت عليه في قلبي لانه نبذ عبادة المعبودة لاجل امرأة فانية

وكان كلما فرغنا من صلاتنا يزورني في غرفتي فنتحدث طويلا في امور شتى . وقد سألته مرة لماذا لم تقدم امونارتس قربانا على مذبح المعبودة بعد شفائها من مرضها وتجولها في ارض الحديقة حول منزلها فاجابني قائلا

— لانها طلقت آلهة مصر ولم تعد لها بها صلة

— ولكن ألا تعلم ان الالهة تنتقم من الذين يتبعون السحر ويتحدون الالهة؟ ان كل ذنب يغفر الا جحود الروح المقدسة والانتباه

الى اله الشر والانغماس في أعمال السحر . لا أجهل ان اموتارتس تصوب سهام سحرها الى صدري ولكنها ستهتط كلها دون ان تمسني بأذى

فاطرق كالكراتس برأسه وهو يعلم جيدا انى على حق واخيرا تكلم قائلا

ــ وا أسفاه . انها لاتحبك ياسيدتى : ولعمرى اخبرتنى مرارا انها تخافك وتبغضك منذ الساعة الاولي التى وقعت فيها عيناها عليك وهي تقول ان روحها تنذرها دائما وتقول انك ستحرين المحن والمصائب على رأسها وتدمين «الموت» ليكون رفيقا لها

ــ ان الموت يكون بلا مراء ضيفا خيرا من «شيطانها» الذى تسكنه في صدرها ، لهفى عليك ايها الرجل المسكين . ان قلبي ليتمزق لاجلك لارتباطك بهذه الملاحة المسمومة التى حرمتك كل رخاء وعمل للخير واقترانك بهذه الشيطانة التى ستقيد جناحي روحك في النهاية وتجذبك الى ظلمتها . اضرع اليك اشفاقا عليك يا كالكراتس ان تبحث عن نوت القديس وتعترف له بذنوبك وتسمع نصيحته لان هذه المشكلة فوق طاقتى ولا قدرة لى عليها . ابحث عنه في الحال قبل فوات الفرصة لانى لى اعرف انه صار من الموت قاب قوسين أو ادنى

هذه اعظم امنية لى ياسيدتى ومع ذلك كيف استطيع البحث عنه انا الذي اجهل مكانه ؟

ــ سأكون مرشدتك ياكالكراتس . فلنذهب الى زيارة نوت في منزله السري عند شروق شمس الغد

فاجابنى قائلا

— حسن . ليكن ذلك

ثم حياني وانصرف

جاءني كالكراتس في اليوم التالي فتحدثنا معا عن حالة خور والوسائل التي يجب اتخاذها لتحسين أحوالها وكذا تحدثنا عن تهديد بعض قبائل متوحشة رفضت عبادة الحقيقة أو « لولا » كما يسمون ايزيس وعبدت الها آخر ينتمي الى الشمس

وكان كالكراتس يصغي الي باهتمام فاثارت كلماتي روح الشجاعه والدهاء العسكرى فى نفسه ووزن الاسباب التي تدعو الى الهجوم والاسباب الاخرى التي تدعو الى الدفاع وبعد ذلك سألني عن عدد شعبي وعدد الاعداء وعن سلاحهم وغير ذلك مما يتعلق بعمدات الحرب والكفاح

ولما عرف كل شيء وضع الخطة التي رآها خير ماستطيع عمله فى احوالنا . وقد اطال الحديث وكان يتكلم باهتمام فاخذت اصغي اليـه واراقب وجهه الجميل اللامع الذي يشبه وجه اله الشمس لدي الاغريق وكنت اقوه كلمة هنا واخرى هناك وأقول فى نفسى يا ليت استطيع بشجاعته وحكمتي ان اقود شعب خور وأهيء مصيره وابنى به ملكا عظيما دونه ممالك الفراعنه يمتد الى حدود مصر

ماذا اقول في أحلامي هذه ؟ نقف عند حدود مصر ؟ لماذا لا نكتسح بلاد الفرس كذلك ونتوج ملكين على العالم في سوسا وطيبه؟ ان هذا العمل يتطلب وقتا والحياة قصيرة ولكن هناك على مقربة مني تتقد نيران الحياة وفي يدي مفتاحها أو عما قريب سيصير في يدي بعد ان يقصى نوت نحبه

كادت هذه الافكار الملتهبة والمطامع العالية التي في تحقيقها توجد

بذور السلام ، تبدر من شفتي وتتدفق في كلمات حارة تشمل روحه بلا مراء . ولكني انا خائفة كبحت جماح عواطفي ولزمت الصمت وقلت في نفسي

— انتظري . انتظري . لم تحن الساعة المعينة بعد

قام كالكراتس لكي ينصرف ولكنه تحول نحوي وقال

— ساكون هنا عند شروق الشمس أو بالحرى سنكون هنا لان امونارتس تريد ترافقنا في هذه الرحلة لزيارة القديس نوت

— أرجو ان يستقبلها بالترحيب بعد ان نالت على يديه ما نالته عند ... الرهيبة هناك . ومع ذلك فيكن ماتريد . يسرني ان أعلم ان الاميرة امونارتس تستطيع السفر ثانية ومع ذلك ذكرها يا كالكراتس ان الطريق التي ستسلكها شاقة وعرة

— ساخبرها بذلك . على ان هذا لايجدي نفعا اذ من يستطيع ان يثني امونارتس عما تريد ؟ اني لا استطيع ذلك . كلا ولا أبوها من قبل ولا أي مخلوق على الارض

— نعم ولا أي اله يا كالكراتس لان الطرق التي تتبعها ليست طرق البشر ولا الالهة . ان كلا منا يطلق سهمه الى حيث يريد : فانت نحو هدفك وأنا نحو هدفي وهي نحو هدفها فلماذا اذن ينتقد أحدنا الاخر ؟ دعها تأت لزيارة نوت واتوسل ان تعود مبهجة القلب

في فجر اليوم التالي وقفت خارج الهيكل انتظرفيلو والحالين فجاءت امونارتس وكانت ترتدي وشاحا ثقيلا لان الهواء كان باردا ومع ذلك كانت جميلة في ثيابها هذه

حنت امونارتس رأسها وحيتني قائلة

بهذه المخاطرة . وفى الواقع صحت قائلة

ـ انتظروا هنا وسأذهب لزيارة نوت ثم أعود البكما واذا لم اعد بعد دورة الشمس عودوا جميعاً الى خور وعيشوا هناك أو اذا شئتم اذهبوا الى الشاطئ وسافروا بمساعدة السفينة الى الملتقى . انى ذاهبة

فصاح كالكراتس قائلا

ـ كلا . سأذهب معك

فضحكت امونارتس ضحكة عالية كعادتها وقالت

ـ اذا كان الامر كذلك فانك لا تذهب منفرداً ماذا ؛ هل احشى مالا يخشاه سيدى ؟ هل هذا أول خطر استهدفنا له معاً ؛ اذا كان هذا هو الاخير فليكن

على ذلك مررنا فوق النتوء الصخرى ، [illegible] فى النهاية ، الى أن وصلنا الى طرفه بسلام وهنا ربضنا فوق الصخر الخشن [illegible] بايدينا مخافة أن تلقيبا هزاته الى الهاوية تحتنا أو تقذف بنا الرياح الشديدة مثل أوراق الاشجار

أخيراً ظهر سيف الضوء يشق الظلمة فى الوقت المعين [illegible] الخشبي وهو يترنح فى مكانه مثل سفينة تتلاعب بها الامواج

ناديتهم قائلة

ـ تشجعوا واتبعونى لان الهلاك نصيب كل من يتردد

ثم سرت فوق هذه القنطرة المروعة فاجزتها والتفت على الصخرة من الناحية الاخرى

وقف كالكراتس متردداً ولكن امونارتس تقدمته ثم اجتازت القنطرة وهى تضحك لكى ترينى انني لست الوحيدة التى منحت [illegible]

الشجاعة والاقدام

تبعها كالكراتس بعد ذلك فامسكته من يده ثم تبعه وهو ربط الجأش وهكذا وقفنا نحن الاربعة على طرف الصخرة من الناحية الاخرى .

صاح كالكراتس قائلا

ـ اني مبتهج بوجودي هنا يا سيدتي ولو انه خطر ببالي — ولا أدري لماذا — انه هذه آخر رحلة لي على الارض

لم أجبه بكلمة لان كلماته الرهيبة صعقت قلبي وحبست صوتي : على انني نظرت الى وجهه فوجدته أبيض كالثلج ورأيت عينيه الواسعتين حراوين كأنهما تتقدان بنيران الحمى .

تناولت يد كالكراتس وأشرت الى فيلو أن يتناول يد أموتارتس ثم سرنا الى السلم المنحوت من الصخر ومنه هبطنا الى المغارة ثم دخلنا الى صومعة نوت فابتهجت لانزوائه بعيداً عن الرياح الشديدة ولاني رأيت نوراً في الكهف المقابل لنا واذ ذاك خاطبتهم قائلة

ـ استريحوا هنا جميعاً . سأدخل الكهف أولا وأخبر نوت لكي يستعد للقائكم

دخلت المكان على امل أن القى ذلك القزم الغريب الذي يتولى خدمة نوت ولكني لم أره على اني كنت على ثقة انه لا بد أن يكون قريباً اذ شاهدت الطعام موضوعا على أربعة اطباق خشبية كأنه أعد لضيوف ، فقلت في نفسي ان نوت رآنا ونحن نجد على الصخرة أو ان روحه أنذرته بقدومنا

١٠ ـ في عائشة

درت بعيني فيما حولي باحثة عن نوت الى أن وجدته في الظل بعيداً عن نور المصباح . وكان جاثياً أمام تمثال ايزيس وقد غرق في صلاته على ما يظهر فاقتربت منه وانتظرت منتبهة لاني لم أجرأ على أن اقطع عليه صلاته ومع ذلك لم يتحرك ولم يلتفت الي . وكان جامداً كأنه تمثال من العاج ولما عيل صبري ملت نحوه ونظرت الى وجهه فرأيت عينيه جامدتين وفكه قد تدلى

لقد مات نوت !

تأوهت قائلة

ـ سيدي . سيدي العزيز : سبق السيف العزل

ثم ملت وقبلته في جبينه البارد

أخذت أفكر بعد ذلك وافكر بسرعة فقلت ألم يقل عند مأودعته ان هذه آخر مرة نتحدث فيها معاً ؟ أين ايماني أنا التي نسيت ان نبوات نوت كلها صادقة ؟

لقد ذهب نوت اذن ليستريح بين أحضان أوزوريس بعد ان القي على كتفي وشاحه وصرت الآن حارسة على نيران الحياة التي اعرف سري وحدها وفي يدي مفتاحها

نزلت هذه الفكرة على رأسي مثل ضربة شديدة فارتجفت وخررت على ركبتي وشعرت هنيهة بدوار في رأسي وفي خلال ذلك رأيت أحلاما غريبة ، أحلاماً لا يجوز تدوينها

قمت بعد قليل وسرت الى الباب ثم ناديت الثلاثة المنتظرين في الخارج فدخلوا فقلت لهم

ـ اجلسوا وكلوا

ثم اشرت الى المنضدة التي وضع عليها الطعام

احدق كالكراتس النظر الى ما حوله وقال

— أين صاحب المأدبة يا سيدتي ؛ أين نوت المقدس الذي قطعنا بهذه الرحلة المريعة لرؤيته ؟

فاشرت الى اعماق الظلمة وأجبته قائلة

— ها هو ، بارد الجسم ، جثة لا حراك بها ، لقد ابطأت كثيراً في خور يا كالكراتس فعليك الآن أن تطلب نصيحته وغفرانه على مائدة أخرى هي مائدة أوزوريس

نطقت بهذه الكلمات لان قوة أوحت بها الي على اني أردت ان اقطع اللسان الذي فاه بها قائلة في نفسي : كيف أعاتب الرجل الذي احبه عن مائدة اوزوريس في مثل هذا المكان ؟

سار الجميع الى الزاوية المظلمة ونظروا الى العابد الساكن والى تمثال المعبودة أمامه ثم عادوا وكان فيلو يتمتم بالادعية والصلوات ، وكالكراتس يدق يداً بيد لانه كان يجل نوت ويحبه أكثر من أي رجل على قيد الحياة وكذا قرأت سؤالا ارتسم في فكره وهو لمن يعترف الآن بذنوبه ؟ ومن يستطيع ان يلقي اعباءه عن كاهله ؟

أما امونارتس فلم يحفل بشيء وقالت وعلى ثغرها ابتسامة ذات معنى

— ربما ذهب الكاهن الشيخ ايري هل رأى أحلاماً صادقة خلال السنين الطويلة التي قضاها على الارض . لا ادرى ما كنت تريد قوله له ومع ذلك اقول ان ما كنت تريد قوله ليس فيه خير لي أنا وحدك لانني كذلك معها قالت لك الكاهنة التي لا تضمر خيراً سواء لي أو لك أي سيدي كالكراتس . حسن . لقد مات ولا تستطيع بنت الحكمة

نفسها أن تعيده الى الحياة . فلنسترح ونأكل ثم نعد قبل أن تخذلنا قوانا من هذه الطريق المروعة التى اجتزناها الى هذه الحفرة خيمة

فاجبتها قائلة

ـ لا تستطيعين العودة أيتها الاميرة اموناراتس حتى تغرب الشمس ثانية ويأتى النور الاحمر فيرينا أين نضع أقدامنا . أما اذا حاولتم عبور القنطرة الان فمعنى ذلك الموت المحقق لنا . الا فاصغوا الي . لقد صرت بعد وفاة نوت حارسة على كنز معين كان حارساً عليه . وهو هذا الكنز مخبوء في بطن الارض تحتنا فلا مندوحة لي من الذهاب لزيارته لارى هل مسه أحد . ساذهب الان أما أنتم فامكثوا هنا اذا سئمتم حتى أعود اليكم واذا لم اعد فانتظروا حتى يسقط النور على طرف الصخرة واذ ذاك اجتازوا القنطرة وسيروا فوق الضوء وفروا الى حيث تريدون وها هو فيلو يعرف الطريق

فقال فيلو

ـ كلا يا ابنة ايزيس . انني مرتبط بك بعهودي وواجبي لاسيدين الزوجين فاينما تذهبي اتبعك الى النهاية

وقال كالكراتس

ـ ساتبعك أيضاً لانى لا أريد البقاء في هذه الظلمة مع الموت

فاجبته قائلة

ـ ومع ذلك قد يكون بقاؤك أعظم حكمة اذ من يستطيع الافلات من الموت الذى تتحدث عنه ؟

بدرت هذه الكلمات على كره مني ايضاً . على ان كالكراتس اجابني بشيء بين الحدة قائلا

ـ لا يهمني . سأذهب

فقاطعته امو نارتس قائلة

ـ اذن سأذهب معكما . ان هذه الكاهنة حكيمة وقديسة بلامراء ومع ذلك لى المعذرة اذا اخترت مشاركتكما فى طريق مجهولة . ربما هنالك باب آخر لا استطيع الاهتداء اليه

اواه ليت هذه الحمقاة كانت تعلم ان طعناتها هذه التي صوبتها الى قد قست القلب الذى ارادت ان تسحقه ودفعتني الى حيث لا تريد . نعم ليتها ادركت ذلك . على انني اجبتها قائلة

ـ كما تريدين . الان كلوا واستريحوا الى ان تحين الساعة المعينة فادعوكم

أكلوا ثم رقدوا فى الكهف الداخلى وناموا أو لم يناموا . اما أنا فلم اذق طعاما وأخذت اراقب الساعة بجانب جثة نوت محاولة مناجاة روحه التى كنت أعلم انها على مقربة منى ومع ذلك لم يجبنى شيئا على اسئلتى العديدة أو بالحرى خيل الى انها اجابتنى بكلمة واحده وهي قولها

ـ حذار !

قلت فى نفسى ان من المدهش ان لا يجد نوت سيدى واستاذى الذي يحبنى أكثر من كل شيء آخر على الارض ، غير هذه الكلمة التى طالما كان يرددها وهو على قيد الحياة . وعلى ذلك يظهر انه لم يتحول عن رأيه سواء فى الحياة أو فى الممات

مامعنى ذلك ؟ هل يقصد ان لا القى نظرة أخرى على « النيران » وان أعود الي خور وهناك العب ما استطعت من الادوار الى ان يذبل جسمى وتدركني الشيخوخة ثم أموت بعد ان ادلل أولاد كالكراتس

وامونارتس اذا ماتا قبلي ؟ أو ربما تل تقسي هذه الشعوب المتوحشة والحياة بين الخرائب والاطلال فافر منها طالبه عشرة العلماء والفلاسفة

هذه هي نصيحته. ولكن بماذا تعدني نصيحة قلبي ؟ ربما تعدني بموت عاجل بعده عذاب شديد في عالم مظلم آخر لانى عصيت نصائح نوت واقدمت علي منازلة قوة جديدة لم يناولها أحد من البشر . أو ربما تعدني بمجد وجلال لم يخطرا ببال أحد وسلطان فوق سلطان كل ملوك الارض وحياة أطول من حياة الجبال الراسية ، وربما وعدتني فوق ذلك بحب من أهوى وهى أمنية أعظم من كل هــذه المنح اذا اجتمعت وضربت في عدد ماعلى شواطىء البحار من الرمل والحصى — لعمري لاقدمن على تحقيق امنيتي هذه مهما اصابني في سبيلها ولادعن نصيحة نوت وانذاراته

حانت الساعة المعينة . ومع ان الظلمة كانت حالكة الا انى عرفت ان الفجر قد طلع في العالم الخارجي فقمت وناديت رفاق الثلاثه فسرنا في ذلك الطريق المظلم الذي وصفته وتسلقنا صخرة بعد أخرى في بطن الارض على ضوء المصابيح الضئيل

أخيرا وصلنا الى الكهف الخارجي فاجتزنا الممر ووصلنا الي الكهف الثانى ثم وقفنا عند مدخل دهليز آخر شاهدنا فيــه وميضا يلمع من وقت الى آخر وسمعنا صوتا يشبه الرعد يدوي من حين الى حين فقلت

ــ ان الكنز الذى جئت لمشاهدته مخبوء هناك فامكثوا هنا

فقال كالكراتس

ــ كلا . سأتبعك الان كما فعلت من قبل

وقالت امونارتس

ـ اينما يذهب سيدى اذهب أيضا

أما فيلو الاغريقى الحريص فقد حنى رأسه واجابنى قائلا

ـ سمعا وطاعـة سأبقى هنا واذا كنت في حاجة الي فادعنى يابنت الحـكمة

وكنت في ذاك الوقت لا اكترث كثيرا بفيلو أو بمصيره مع انى كـنت أحبه بالرغم من مكره وخداعه فقلت

ـ حسن

ثم سرت يتبعنى كالكراتس واموناراتس

الفصل الثالث والعشرون

« قضاء النيران »

وقفنا في الكهف الثالث المفروش بالرمل الابيض والمضاء بالنور الوردي . وكانت هناك لطخة سوداء على الرمال البيضاء ممرئيا في الحال لانها كانت تراب تلك الجثة التي ماتت منذ حين

وقربت النيران الدائرة المتعددة الالوان من بعيد وتحول صوتها الى دوي ، ودويها الى رعد قوي يزعزع قواعد الجبال الشامخة ويدك الحصون المنيعة . ثم ظهرت وهي تتوهج بالف ضوء ثم مكثت هنيهة تلتوى وأخيرا ذهبت في دورانها الابدي في بطن الارض وتحولت كل هذه الضجة بعد دائرة الى سكون

دب الرعب في قلب كالكراتس فخر على وجهه وجثت امونارتس على ركبتيها بالرغم من كبريائها وغطت عينيها بيديهـا . اما أنا فوقفت منتصبة القامة وضحكت ولا عجب فقد كنت أعرف انى محبوبة لاله النيران وانه لايجدر بى ان أجفل من زوجي المنتظر

أخيراً وقف كالكراتس وسألني قائلا

ـ أين الكنز الذى تبحثين عنه ياسيدتى ؛ اذا كان مخبوءاً هنا في هذا المكان المروع فالق عليه نظرة سريعة وهيا بنا نهرب في الحال . انى خائف

فقاطعته امونارتس قائلة

ليس في قولك هذا مايدعو الى الدهشة لان مثل هذه الاعمال

السحرية غير معروفة على الارض . وأقول ذلك لانى أعرف شيئا من السحر وكم استحضرت أرواحا من العالم السفلى ووقفت أمامها وجها لوجه

فقلت بهدوء

ان كرسي في قلب هذه النيران الملتهبة وسأذهب الان لاالتقاطه ولا أدري هل أعود ثانية أم تحملني النيران على جناحيها . امكثا اذا شئتما أو اذهبا قبل فوات الوقت ولاتؤلماني بكلمة تكا لانني أريد ان اصقل روحي لتتحمل التجربة الاخيرة

أحدق كلاهما النظر الى ثم لزما الصمت

وقفت افكر هنيهة فخيل الى انني العوبة في يد قوتين تجذبني احداهما الامام والاخرى الى الخلف . فكانت روح النيران تناديني قائلة

— تعالى ايتها القديسة . تعالي البسي ثوب الكمال وكوني ملكة على الجمال والملاحة . تعالى اشربي من هذه الكاس المترعة بالاسرار التي لم يمسها شفاه أحد من البشر . تعالي أنظري الى هذه الامور المخبوءة عن أعين الناس تعالى ذوقي الافراح التى لم يخفق بها قلب انسان . اسرعى اسرعي الى احضاني وتعلمي من قبلتي معنى السرور و لا بتهاج لاترددي ولا ترتابي . دعي الثقة تقدك من يدك الى وطنك. لاترتابي لاترتابي تشجعي والقي ثوب الفناء والبسي ثوب الروح واجلسي على عرشك بعيداً عن يد الزمن وارفلي في ثوب الجلال الابدي وأنظري بعينيك الابديتين الاجيال وهي تسير باقدام حزينة من ظلمة الى ظلمة. أنظري هاهو قرينك من البداية والى النهاية . ستقيده ملاحتك ويسكره

عبير انفاسك فيتحول شتاء قلبك المظلم الى صيف منير من الافراح زاهر

نطقت روح النيران بهذه الكلمات ولكن اجابتها روح أخرى هى روح نوت فخاطبتني قائلة

ـ ارجعي يابنت الحكمة قبل ان تلتقى بثوب الجنون ولا ينفعك الندم . يريد الصياد اقتناص فريسته فكلما رفضت طعمة قدم اليها أخرى الى ان تنبذها كلها فيلقى تحت قدميها أغلى ماالديه من الحلى ولكن الويل ثم الويل لمن يفتنها تألقها ولمعانها الكاذب فتمسكها وتضعها على جبينها وصدرها لانها ستتحول الى حيات تنهش المخ والقلب في الداخل . اذهبي . الم اقك حارسة على النيران فهل تريدين سرقة ما اؤتمنت عليه لتصيرى فى مصاف الالهة ؟ افعلى ذلك اقسم لك ان ثوب الالهة الذى تلبسينه يكون قيصا من نار . وسينزع حبيبك منك ثم تتبعينه في جميع انحاء الارض والكواكب فلا تجدينه واذ وجدته فقدته ثانية . هل تجرأين على ان تنتزعي مصيرك من يد القدر لكي تصوريه كما تشائين بارادتك العمياء؟ افعلي ذلك تطاردك الشياطين من جيل الي جيل وتمزقك سيوف الندم وتخنقك الدموع المرة التي لاتجدى وتجمدك رياح الاحزان الثاجية وتعيشي لارفيق لك يعزيك ولا مؤانس يسليك الى ان تقفى فى النهاية أمام كرسى العدالة فتسمعى وأنت صاغرة الحكم عليك بجزاء لايرد ولا ينقض . هل هويت يابنت الحكمة الى الدرك الاسفل حتى نسيت عهودك وأردت ان تخونى أمانتك لكى تسلبي امرأة أخرى حبيبها ؟

مرت بي هذه المظاهر فتعلقت باذيال الانكار والرفض وقالت كلا.

لا أقدم على هذا العمل وسأقضى حياتى على الارض كغيري من البشر الى ان أموت . أواه . ليت الموت يدركنى الان فامضى الى المكان الذى أعد لى مهما كان أو اغوص الى اعماق ذاك النوم الذي لانهاية له الخالى من الاحلام المزعجة

نعم نبذت الافراح والامال وتحولت لكى اسلك الطريق المنحدر الى العالم وما فيه من الالام والاحزان

ولكن — ولكن سمعت من بعيد صوتاً خافتا من الموسيقى ـ اغنية اله النيران القادم . وكانت الاغنية حلوة شجية في البداية مثل صوت الام وهي تدلل طفلها لينام فلم يلبث أن عادت الي ذكرى أيام الطفولة السعيدة .

اشتد الصوت وارتفع فتذكرت أيام شبابى وجاشت في صدرى رغبات غريبة لا افهم لها معنى

زادت النغمة قوة فتذكرت وقع حوافر الخيل عند ما كنت امتطى صهوة جوادي واقطع به الصحراء كالريح

زاد الصوت قوة فوق قوته الاولى فرأيت نفسي اخوض معركة حربية بجانب أبى ، يصيح رجال عشيرتى الابطال خلفى ، وأمامى قد انهزم الاعداء .

آه . ان رمحى يلمع كالبرق ، وشعري تلعب به الرياح بين الاعلام؟ صاح الالوف من رفاقى قائلين

— احملى على أعدائك يا بنت يعرب ، احملى على أعدائك

فاندفع جيشنا كالسيل الجارف وحملنا على الاعداء فاخترقنا صفوفهم اذ من يستطيع الثبات في وجه ابنة يعرب ورجال عشيرتها ؟ ثم اعملنا

في رقابهم سيوفنا وحرابنا ـ آه . أرى رمحي اللامع قد خضب بالدماء
زادت الموسيقى قوة ورهبة فرأيتني الآن وحيدة وسط البرية
تحت النجوم ؛ ومن النجوم تساقطت المعرفة والملاحة على قلبي كقطرات
الندى فصرت الآن حاكمة على الشعوب وصار الملوك يجثون تحت
قدمي كما صاروا ألعوبة في يدي ألعب بها وأكسرها . ثم رأيت صيدا
وقد تحولت الى شعلة من نار فملأت روح الانتقام قلبي . اسمعوا !
هذه وقع أقدام المعبودة ، لقد وضعت مالكة السماء قبلتها على جبيني
ودعتني ابنتها المختارة . ان الحكمة في صدري ، تقطر من شفتي النبوات
وترشد قدمي الروح : سأقف في وجه ملك الفرس . لقد ألقيته عن
عرشه بعد أن فر من وجهه الجميع واعطيت مجده ورجاله طعمة للنيران .
اسمع يصيحون ويصرخون وهم يتقلبون في النار ... لقد هلكوا ...
أواه . اني وحيدة ، فأين حبيبي ؟ لقد اقتربت خطواتي من القبر
ولم احمل في بطني ولداً ، فأين حبيبي ؟
فاجابتني النيران قائلة

ـ ها هو حبيبك . انه ليس ببعيد . انه بجانبك . فخذيه ، خذيه ،
خذيه !

صار الصوت الآن كالطبل يدوي ويتردد صداه حول التلال .
وكأني بملك الطبول تنادي قائلة

ـ أين قائدة جيوشنا ؟ أين ملكتنا ؟ تقدمي أيتها الملكة المتوجة
بتاج الحكمة الرافلة في ثوب القوة والسلطان . لن نترك بعد الآن بلا
قائد وسنسير الى الفوز ونقبض على ناصية العالم
« لقد اقترب ملك إيران ليفتح أبواب الظلام تتبعه جيوشه

الحرارة . لقد أتى في حلة من البهاء ، لقد أتى في ثوب من الجلال ، لقد أتى ليأخذ عروسه ، فاخلعي ثيابك . اخلعي ثيابك وتأهبي أيتها العروس . ان العريس يناديك

خلعت ثيابي وحللت شعري فسقط حولي وغطاني مثل ثوب الحداد دق كالكراتس الاغريقي اذ ذاك يداً بيد وصاح قائلا

ــ هل مسك الجنون ؟

وردت الاميرة امونارتس صدى قوله فقالت وهي تنتظر النهاية وتبتسم .

ــ هل مسك الجنون ؟

فاجبتهما قائلة

ــ كلا . كلا . انني حكيمة . لقد ملت نفسي الاشياء العادية والايام الهادئة انا التي ابحث عن الفوز او التي الموت

فررت هاربة الى أن وقعت في طريق « النيران » فرأتني ثم مدت ذراعيها نحوي ثم طوقتني فسمعت أصوات الهجوم

يا للعجب ! ما هذا ! انها لم تحرقني . لقد جرى دم الالهة في عروق صارت الروح التي تقطن جسمي شعلة منيرة . لقد ملكتني النيران وصارت النيران ملكا لي بهذا الاقتران المروع

رأيت على نور الشعلة التي أنارت في داخلي مناظر عديدة فاخذت الحجب ترتفع وتكشف عن جلال بعد جلال ، وجعلني الموت وابتعد بعيداً عن قدمي وقد امتقع وجهه وعراه الخزي والعار . ثم تلاشي الالم وذهب الضعف ووقفت ملكة على كل شيء يتعلق بالبشر

ثم ما هذا ؟ لقد شاهدت صورتي في النيران كما لو كانت مرآة

فرأيتني الملاحة بعينها وقد تجسمت وقلت في نفسي وأنا حائرة هل يمكن أن يكون هذا الجسم جسم امرأة ؟ وهل يمكن أن تكون هاتان العينان عيني انسية ؟

ساد سكون عميق بعد ذلك ، وفي وسط هـذا السكون سمعت صوتاً رنته موسيقية اذكرها جيداً هي رنة ضحكة افروديت !

وكان عمود النيران قد ابتعد وذهبت أنواره السديدة الباهرة فوقفت أنا عائشة ظافرة غالبة لا أغلب . ثم تقدمت وأخذت أتكلم بصوت عذب موسيقي عالمة انني ابست روحا أخري . ولعمري من هي ايزيس أو أية الهة أخري بالنسبة الي أنا التي وقفت الآن ظافرة وصرت مع جميع الالهة في مستوي واحد ؟

أواه ، ألم اكن ادري ان ايزيس ليست الا الطبيعة وان الطبيعة صارت من الآن فصاعداً جارية لي . لم افكر بعد ذلك في الذنوب أو الندم أنا التي سأسن من الآن فصاعداً قوانيني واكون على نفسي حكما. ان ما اريده يكون لي ، وما لا اريده ينبذ جانباً . نعم لقـد صرت الطبيعة نفسها فانى اشعر بجميع قواتها تجرى في دمي وصرت رحيمة مثل خريفها الرقيق

آه ، انظروا !

هاهو الرجل الذي يهواه قلبي واقفاً . أراه مسكيناً تكاد تذبل زهرة حياته ويدركه الموت . فلكي يكون قريني يجب أن يكون مثلي وعلى ذلك لا مندوحة من أن يذوق النيران أيضاً وبعدها لنا أن نخوض في أحاديث الحب والغرام ان حبيبي ليس لي وهو على هذه الحال صرخت قائلة

ـ انظر الي أي كالكراتس وقل لي هل رأيت مثل هذه الملاحة في حياتك ؟

فاجابني وهو يلهث قائلا

ـ جميلة . نعم جميلة ولكنها ملاحة مريعة كلا . لست بامرأة ، انك روح . أواه . دعيني اغمض عيني! دعيني اهرب !

فاجبته قائلة

ـ اثبت في مكانك وانتظر لاني سأريك حالا كيف تفتح عينيك. انظري الي يا بنت فرعون واخبريني هل ذهبت إطبعة الشيخوخة التي عيرتني بها منذ مدة وهل غادرت وجهي وجسمي أم لا تزال آثارها باقية ؟

فاجابتني برباطة جأش قائلة

ـ لا اري أمامي انسية بل ساحرة .اليك عنا أيتها الساحرة الملعونة، ارتدي ثيابك واذهبي أيتها المرأة الوقحة الجريئة أو دعينا نذهب ونترك نيرانك الغير المقدسة

القيت ثيابي حول جسمي فبدوت في شكل ملكي بديع واذ ذاك التفت الي كالكراتس مرة أخري ونظرت اليه ، وبينما كنت اطيل اليه النظر ادركت اني تغيرت تغييراً عظيما

نعم تغيرت فلم أعد عائشة الاولى ، عائشة التي كانت منقادة بالروح عائشة التي كانت تتوق نفسها الى السماء ، عائشة النقية التقية الطاهرة . عائشة التى كانت لا تحلم بغير السماء وما في السماء والتى كانت تعلم ان منزلها ليس هنا على الارض بل بعيداً وراء بحار العالم وحباله ، منزلها الابيض المتعالى بالامها ومتاعبها الارضية شيدته حجراً فوق حجر

وزينته بتماثيل الالهة المصنوعة من العاج وعطرته بعبير انفاسها

عائشة التي كانت تتسلق الطريق الصخرى المنحدر المؤدى الى صخرة السلام ، بالاحزان والالام بقدمين داميتين ، تلعب بها رياح الظروف وتبللها دموع الاقدار وتغسلها مياه الندم عائشة التي كانت تؤمن بمن لا تعرف عنه شيئاً ومع ذلك ظلت سائرة ليلا ونهاراً تدعى وتكافح ينير طريقها سراج الايمان واثقة انه لا بد أن يرفع النقاب في النهاية فترى « الوجه المقدس » وتسمع صوته الحلو يرحب بها . وهى مطيعة عالمة ان الوقت ليس لها ان عليها في كل وقت أن تقدم حسابها

نعم كانت عائشة سائرة فى طريق القداسة ينير أمامها مصباح الرحمة والغفران

والان ؟

والان ماذا صارت عائشة بعد ان ذاقت مذاق « روح النيران » واقدمت على عملها هذا وانتزعت السر من قلبه الملتهب ؟ نعم ماذا صار لى بعد ان لبست ثوب الخلود على الارض وفي الواقع كانت تسمع وهى واقفة صوتاً يناديها قائلا

ـ انظري . لن تذوقي الموت وستبقين ما دامت الارض باقية لانك شربت من روح الارض التى لا تفنى حتى يندك صرحها وتتحول الى لا شيء كما بدأت

ماذا صارت عائشة الان ؟ صارت تلك الروح وقد سكبت في قالب أبيض على شكل امرأة ، نعم صارت جوهرها ، صارت الارض نفسها ، فى يدها قيود صواعقها وعواصفها ان شاءت اطلقتها وقت غضبها ولعمرى من يستطيع الوقوف اذ ذاك فى وجهها ؟ صارت تعرف

بهاء الارض وجلالها وهي تسبح في الفضاء ، يقبلها نور الشمس أو تحلم بين ذراعي الظلمة . صارت الكواكب شقيقة

ليس هذا كل ما هنالك ، بل صارت كل قوة وعاطفة على الارض فكل شيء تحت امرتها وسلطانها يأتمر بامرها وينتهي بنهيها ولكنها صارت مثل الارض وحيدة لا تستطيع الاتصال بالسماء أو مخاطبة من في السماء

تجلت كل هذه الحقائق أمامي في لمحة عين وجاءت معها حقائق أخرى — لم يكن لدي أقل ريب ، لست في حلم . لقد عرفت . لقد عرفت !

ها ، ارى الرجل الذي اريده واقفاً أمامي . انه متزوج حسب قانون الطبيعة . ثم لا اريد سواه . ولكن ما أهمية ذلك ان الخمر التي شتهيها يجب أن اشربها فما أريده هو لي . من يجرأ على الوقوف أمام بطشي وقوتي ؟ لقد أمرت أنا عائشة التي ولدت ولادة جديدة فيجب أن ينفذ أمري

خاطبت كالكراتس بصوتي الجديد ذي النغمات الحلوة قائلة

— اني عروسك ياكالكراتس فلا تستح منها . استمد ياكالكراتس وتعال قف في طريق النيران عند عودتها . ثم هيا بنا نحكم العالم الى الابد

فصرخت أمونارتس قائلة

— ماذا تقولين أيتها الساحرة هل تريدين أن تسلبي مني زوجي ؟ كلا . لن يكون ذلك . اذا كنت قوية وذات سلطان فاني لا أقل

دونك قوة ولو اني لا أزال امرأة . كالكراتس انظر الي أنا زوجتك التي حدث طفلاك وارتبطت بك ارتباطاً لا تفصم له عرى . دع عنك هذه الشيطانة المليحة قبل أن تفتنك بسحرها وهيا بنا من هذا الجحيم المروع المخيف

فقال كالكراتس وهو ينظر الي بخوف ورعب

ـ اني قادم . اني قادم بلا ريب . انني خائف منها ولا أريد شيئاً من تلك النيران . انها « ست » اله الشر وقد التحفت بثوب من اللهيب .

ـ كلا . لا تذهب يا كالكراتس . دع أمونارتس تذهب اذا شاءت أما انت فابق معي حتى يقضى الامر . لقد أمرت ومتى أمرت يجب أن تطيع

دار كالكراتس على عقبيه ثم القى نفسه بين ذراعي أمونارتس فطوقته بهما وضمته بشدة الى صدرها

سلك سيف ارادتي اذ ذاك فلم افه بكلمة وانما سلطت قوتي عليه فجذبته من بين ذراعيها وأخذ يسير نحوي خطوة خطوة كما يقترب العصفور الصغير من الثعبان الذي يجذبه اليه بقوة باصرتيه

رأت أمونارتس ذلك فوثبت بيننا وتقاطرت الكلمات من لسانها كالسيل . ولا اذكر قولها بالضبط ولكنها كانت تتوسل بحرارة وتبكي بكاء مراً ومع ذلك كان قلبي قد تحجر في تلك النيران فلم ارث لحالها ولم اشفق عليها . ولا عجب فقد كان بوسعي منذ ساعة واحدة أن آمر كالكراتس بالذهاب الى حال سبيله فلا تقع عيناي عليه بعدها ولكن تبدل الامر غير الامر وصرت عائشة أخرى قاسية ، قاسية جداً مثل

الموت الذى لا يشفق ولا يرثى لاحد في العالم . ان الوحش المفترس لا يرحم فريسته كذلك كان الحال معي

مكثت اجذب كالكراتس الي بقوتي ، ومكثت أمونارتس متعلقة به تضرع وتتوسل الى أن تملك الجنون قلب ذاك الرجل المعذب فثار غضبه وصب لعناته على رأسها ورأسي معاً ولعن نفسه لانه غادر فيماق ايزيس الهادئة الساكنة و نبذ الحب المقدس والتجأ الى ذراعي امرأة . ثم توسل الى المعبودة أن ترحمه وتصفح عنه وتتقبل روحه وتعفو عنها ثم انتزع من منطقته السيف الاغريقي القصير وطعن قلبه بيده

وثبت اليه مثل البرق وقبضت على ذراعه وجذبتها الى الخلف بقوة مدهشة دونها قوة هرقل فطار السيف من يده ودار الرجل القوي الذي كان يحمله حول نفسه بضع مرات ثم سقط على الارض

وقفت مضطربة ظناً مني انه مات . ولكنه وقف على قدميه والدم يسيل من صدره ثم تحول الى أمونارتس وخاطبها — ولم يخاطبني — قائلا

— لا تخافي أيتها الزوجة . واأسفاه . انه قطع عميق في الجلد ليس الا

فأجبته قائلة

— اذن دع النيران تشف جرحك يا كالكراتس تأهب لدخول النيران التي ستأتي في دورتها قريباً

وصاحت أمونارتس قائلة

— كلا . كلا . يا زوجي . اتوسل اليك بحق هذا الدم الذى يسيل من جرحك وهو الدم الذى كان يجري في عروق طفلنا المتوفى والذي سيجري فى عروق طفلك الذى احمله لك في بطني ، ان تنبذ هذه الساحرة وتكسر قيود سحرها

فكرر كلماتها بصوت حزين غريب قائلا

ـ بحق طفلنا المتوفي . هل هناك كلمات أقدس من هذه تتوسلين بها الي أيتها الزوجة المحبوبة ? لقد لبست من كلماتك هذه درعاً جديدة

ثم التفت الي وقال

ـ الآن اعلمي يا بنت الحكمة انى ارفض ما عرضته علي ولن ادخل نيرانك السحرية ولو اعطتني القوة والعظمة الابدية وارفض مع كل ذلك ملاحتك هذه الرائعة وحبك الفتاك . الوداع يا بنت الآلهة . اني ذاهب لانشد السلام والمغفرة اذا كان هناك سبيل الى ذلك . نعم سأطلب المغفرة لي ولك ولام طفلي . الوداع يا بنت الحكمة . الوداع الى الابد

سمعت ما جرى على لسانه فخيل الي انى واقفة وسط سكون رهيب فى حين كانت هذه الكلمات القاسية التي قضت على جميع امانى، تسقط على جسمي مثل قطرات من الثلج فزقت قلبي وعقلي وحولت جسمي الى قطعة ثلجية

ولكن سرعان ما ثار بركان غضبي فانفجر بقوة رهيبة دونها قوة الطبيعة نفسها فتكلمت بما جرى على لسانى قائلة

ـ انزل على رأسك الموت أى كالكراتس الاغريقى . فليكن الموت نصيبك والقبر مسكنك . لقد رفضتنى ونبذتني واهنتني فى وجهى فهاهى ارادتى أن تموت ويمحى اسمك من سجل الحياة . مت اذن ياكالكراتس لكى لا تعذبني عيناك بعد الان ولكى اعرف كيف اسخر من ذكراك واستخف بها

فهت بهذه الكلمات انا التعسة الشقية مدفوعة بجنونى ، لا أدرى أية قوة صورتها فى قلبى . نعم خرجت هذه الكلمات فجأة بمجرد ان مستنى

عصا « الشر »

واعجبا ! لقد نفذت كلماتي في الحال فمات الرجل على مشهد مني فضربته القوة المتسلطة على الموت وهي القوة التي منحتني اياها النيران كما عمت ذلك فيما بعد . نعم كانت التجربة الاولى لقوتي المشؤومة اطلاق هذا السهم المريع على قلب الرجل المريض الذي أحبه واهواه !

لقد مات ! مات كالكراتس بلا مراء أمام أعيننا . ومع ذلك ظل واقفاً ويتكلم أو بالحرى تكلمت على لسانه روح أخرى لان شفتيه لم تتحركا وصارت عيناه مثل الزجاج . ولم يكن الصوت صوت كالكراتس ولا صوت أحد من البشر ، ومع ذلك تكلم أو خيل الي انه تكلم قائلا

ـ أيتها المرأة المعروفة على الارض باسم عائشة ابنة يعرب وفي العالم السفلي باسماء أخرى اصغي الى ما يصيبك . ستمكثين هنا حيث خنت عهدك ، هنا حيث قتلت الرجل الذي يهواه قلبك وستقضين أجيالا عديدة على قيد الحياة الى أن يكتمل الوقت ويعود اليك ثانية . ستعيشين يا عائشة في عزلة قاسية ، شرابك الدموع وخبزك الندم . أما القوة التي جنت بها فلن تكون الا سيفاً مفلولا عتيقاً في يدك : وستكون مملكتك من الاطلال والخرائب ورعيتك من البرابرة وحاشيتك من الموتى

سكت الصوت فسألته قائلة

ـ اذا كان هذا مصيري الي أن يعود الى هذا الرجل بعد اكتمال الوقت فماذا يصيبني بعد ذلك أيتها الروح ؟ هل قضي على جميع آمالي أيتها الروح ؟

لم اسمع جواباً ولكن الجسم الذي كان واقفاً أمامي سقط على الرمال كتلة واحدة

الفصل الرابع والعشرون

تضحية فيلو

دارت عجلة النيران مرة اخرى وهى تدوى كالرعد وسارت في طريقها الرهيب فراقبتها عند ما جاءت وراقبتها عند ما ذهبت فخيل الي انني أري بها وجوهاً تسخر مني وتعد الي السنتها

ذهبت النيران فى طريقها السري الى جوف الارض فتحول دويها الى قرقعة وتحولت قرقعتها الى سكون وأنا واقفة أقول فى نفسي لو كنت واثقة من أنها تقتل لالقيت نفسي تحت عجلاتها

تلاشت النيران ولم يبق شيء غير الكهف المفروش بالرمال البيضاء والنور الوردى وقد أضاء على جثة كالكراتس . ولكن كانت هناك أمونارتس أيضاً فقد ظلت واقفة تصب علي لعنات جميع آلهتها

نعم وقفت أمونارتس بجرأتها المعهودة تصب على رأسي جميع اللعنات وتستنزله علي كل شر ونقمة في السماء فوقنا أو في الارض تحتنا وهي لا تدري ان كل ذلك لا يجدى نفعاً

أخيراً تملكها الضعف والملل فخاطبتها قائلة

ـ كفى . هيا ندع فيلو لكي يساعدنا على حمل هذا النبيل لدفنه فاجابتنى قائلة

ـ كلا . أيتها الساحرة . اقتليني بسحرك أيضاً اذا شئت . اقتلي الزوجة كما قتلت زوجها ودعينا نستريح في هذا المكان الى الابد . ليس لدى أعز من هذه البقعة التى يقتل فيها الزوجان وتصير طي

قبراً واحداً

فكررت قولي قائلة

ــ كفى . تعلمين جيداً انى لا أريد قتلك وان جنونى لا ارادتى هو الذى قضى على كالكراتس الذى تحبه . ولعمرى كنت اجهل ان روحي صارت من الآن فصاعداً سهماً يطير على أجنحة الموت

مررت فى الكهف واجتزت الدهليز الواقع وراءه وفي نهايته ناديت فيلو أن يتبعنى فجاء ولما وقع نظره على ملاحتى الجديدة وأنا واقفة في انتظاره في الضوء الوردى خر على ركبتيه وقبل قدمي وهدب ثوبى ثم أخذ يتمتم قائلا

ــ أى ايزيس على الارض والملكة المقدسة

فناديته قائلة

ــ قم واتبعنى يا فيلو

ثم مررت أمامه الى حيث سقط كالكراتس فرأيت أمونارتس جاثية بجانب جثته تبكى بكاء مراً

أشرت الى الجرح الذى كان لا يزال يقطر دماً فى صدر كالكراتس ثم خاطبت فيلو قائلة

ــ لقد قتل هذا السيد نفسه لانه لم يستطع والسفاه أن يحتمل المنظر الى ملاحتى

فتأوهت أمونارتس وقالت

ــ كلا . لقد قتلته هذه الساحرة

لم يسمع فيلو أو اذا كان سمعها فانه لم يحفل بها

حملنا نحن الثلاثة كالكراتس بيننا بعد ذلك وسرنا به فى الطريق

الشاق الذي لولا قوتي التي اكتشفتها ما استطعنا اجتيازه . وهكذا اخترقنا الكهوف والمنحدرات الملتوية الى أن وصلنا الى صومعة نوت قبيل غروب الشمس

أمرت فيلو وأموبارتس أن يتناولا شيئاً من الطعام فأنا فلم تكن لي حاجة اليه . وبينما كانا يأكلان رفعت جثة نوت بفضل قوى الحديدة ثم وضعتها على الارض برفق ووضعت ذراعيه على صدره ثم تركته لينام نومته الاخيرة بعد أن غطيته بملاءته

ولما فرغنا من أعمالنا هذه حملنا تاالكرانس الى الصخرة المرتفعة وانتظرنا مجيء شعاع الشمس حتى اذا وقع نوره عبرنا القنطرة لم معه ولكن اللوح الخشبي لم يقو على احتمالنا فانكسر بعد أن اجتازته أموبارتس وفيلو وكنت لا أزال عند طرفه وقد خيل الي اني ساسقط الى الهاوية ولكن ذلك لم يحدث ووجدت نفسي بجانبهم حتى الجثة معهما .

حملنا كالكرانس فوق النتوء الصخري ثم اخترقنا الدهليز الطويل الى أن وجدنا البغالات لا تزال في انتظارنا فوضعنا الجثة في احداها وعدنا الى خور فبلغناها عند الفجر

حملنا الجثة ثانية الى الغرفة التي أنام فيها واذ ذاك خطرت ببالي فكرة فخاطبت فيلو قائلة

ــ الم تخبرني مرة ان بين الذين يقومون بخدمتنا في الهيكل بعض شيوخ يعرفون كيف يحفظون جثث الموتى من الفناء كما كان يعمل أجدادهم هنا في خور ؟

ــ نعم أيتها الملكة يوجد ثلاثة منهم

ـ اذن ادعهم يا فيلو ومرهم أن يأتوا معهم بادواتهم وتوابلهم

جاء الرجال الثلاثة بعد قليل وكانوا طاعنين في السن تبدو عليهم سيماء النبل فاشرت الى جثة كالكراتس وسألتهم قائلة

ـ هل في وسعكم أن تحفظوا هذا الجسم المقدس ولا يتسرب اليه الفناء ؟

فاجاب أحدهم قائلا

ـ اذا لم يكن قد مضى عليه يومان كاملان فى وسعنا أن نحفظ جسمه بحيث يخيل الى من يراه بعد خمسة آلاف سنة انه مات في هذه الساعة أيتها الملكة

ـ اذن قوموا بمهمتكم أيها السيد واصنعوا ما بكم اذا قمتم بوعدكم احسنت جزاءكم والا نالكم عذاب شديد

وقال الرجل

ـ ليكن ما تريدين أيتها الملكة

اشعل الرجال ناراً خارج الغرفة ثم وضعوا عليها قدراً من الفخار خلطوا فيه مقداراً معيناً من الاعشاب الجافة مع جزء من الماء ثم تركوا القدر يغلي على النار الى أن امتلأ الهواء برائحة لداغة

وبينما كان القدر يغلي أخذ الرجال جثة كالكراتس فغسلوها ودهنوها بمادة سرية الدستها ثوباً أبيض لامعاً كالرخام ثم جاؤا بعد ذلك بقمع من الفخار ووضعوا طرفه فى وريد العنق ولما فرغوا من ذلك اوقفوا الجثة المتصلبة على قدميها ثم امسكها اثنان منهم وجاء الثالث بالقدر بعد أن وضع به مادة تشبه الزجاج بعد ذوبانه ثم صعد على سلم صغير اسنده الى الحائط وأخذ يصب ما فى القـدر في القمع المتصل بوريد

العنق ببطء واحتراس فسرت هذه المادة بقوة ثقلها فى جميع أوردة الجثة .

نزل الرجل بعد أن صب معظم ما فى القدر ثم اتم الرجال الثلاثة مهمتهم بعد ذلك بطريقة لم أرها لانني لم استطع البقاء لمراقبتهم وهم يجهزون الجثة على هذه الحال لوضعها في القبر . وكذا لم اقو على إحتمال رائحة العقاقير التي استخدموها

أخيراً استدعونى فرأيت كالكراتس كانه فى نوم عميق ، هادىء جميل الوجه كما كان وهو على قيد الحياة

قال كبيرهم

سيصير جسم هذا الرجل مثل الرخام عند شروق شمس الغد وسيبقى كذلك الى الابد ولك أن تحمليه الى أى مكان تريدين أيتها الملكة ولكن لا تدعى أحداً يمسه قبل صباح الغد

أمرت بمكافأة الرجال ثم سمحت لهم بالانصراف بعد أن سألتهم أين كان أهل خور يدفنون ملوكهم فقال زعيمهم انهم كانوا يدفنونهم في الكهوف الكبيرة التي تبعد مسافة وجيزة داخل السهل فامرتهم أن يرافقونى غداً الى هناك ومعنا جثة كالكراتس

***

جاء فيلو بعد ذلك وقال ان كهنة ايزيس وكاهناتها يريدون مقابلتى وانهم مجتمعون في فناء الهيكل الداخلي أمام تمثال الحقيقة فامرته أن يتقدمنى الى هناك ولكنه تردد قليلا وقال

— هناك مشكلة أيتها الملكة فان الاميرة أمونارتس أسرت الى أولئك الكهنة والكاهنات قصة ، فاقسمت لهم انك لست امرأة بل شيطانة

نعم وساحرة خرجت من العالم السفلي وانك قتلت كالكراتس لانه رفض أن يعطيك نفسه . وقد اقسمت أيضاً انك تسعين لقتلها ولكنك عجزت عن بلوغ أمنيتك هذه بفضل قوة سحرها الذى تملته عن والدها تحت - نبت فاستطاعت الافلات منك حية

فاجبته بدون اكتراث قائلة

- انها تكذب في الشطر الاخير من قصتها

وصلنا الى الفناء الداخلي فى الهيكل . وكانت الشمس مالت الى الغروب فامتلأ المكان بنور متوهج ثم جلست على مقعدي تحت التمثال فانعكست أشعة الشمس على فزادتني جلالا على جلال

وكان الكهنة والكاهنات واقفين صامتين وقد عقدوا اذرعتهم على صدرهم واطرقوا برؤوسهم فلما وقعت أعينهم على غشموا دهشة وسمعت أحدهم يقول

- لقد صدقت الاميرة فيما قالت

ولم اكن ادرك في بداية الامر شيئاً على انى تذكرت فيما بعد ى لم اعد مثل النساء بل صرت صورة مجسمة من البهاء والجلال

قلت

- تكلموا

فارتجفوا عند سماع لهجة الامر القوية فى صوتى كما ترتجف أوراق الاشجار عند هبوب النسيم فجأة

تقدم كبير الكهنة وهو رجل ضخم الجسم متوسط العمر يدعى رامس واحدق النظر الي ثم قال بصوت متهدج

- لا تدري ماذا تقول أيتها الكاهنة . أي بنت الحكمة أي ابرس

على الارض فقد سمعنا انك غيرت شكلك كما نري باعيننا الان . لست رئيسة الكهنة التي حكمتنا في هيكل منف وتبعناها الى هـذه الارض المقفرة . لقد أثرت فيك قوة سحرية

فاجبته قائلة

ـ اذا كان الامر كذلك فهل هي قوة خبيثة ؟ اخبرني يا رامس هل غيرت الى أحسن أو الى أسوأ ؟

فاجابني قائلا

ـ انك جميلة ، جميلة بحيث يمس الجنون عقل كل رجل تقع عيناه عليك . ولـكن ملاحتك هذه أيتها الـكاهنة ليست ملاحة بشرية . كلا انها ملاحة كالتي يعطيها « تيفون » لمن باعت له روحها . وهناك أيضاً أمور أخرى فقـد علمنا انك قتلت ذلك الرجل الاغريقي كالكراتس الذي كان رفيقاً لنا فيما مضى لا لذنب الا انه رفض حبك . نعم علمنا انك أي رئيسـة كهنة ايزيس قتلت رجلا لانه تحول عن ذراعيك الى ذراعي زوجته ، الاميرة امونارتس وانك كنت تريدين قتلها هي أيضاً لو استطعت ذلك

فسألته ببطء قائلة

ـ ومن اخبركم ذلك ؟

فاجابني رامس قائلا

ـ الاميرة نفسها . انظري . انها هنا . دعيها تتـكلم .

وخرجت امونارتس من بين الجموع وصاحت قائلة

ـ لست كاذبة . لست كاذبة . اقسم امام تمثال الحقيقة هذه واشهد الارض والسماء على ان ما رويته لـكم هو الحقيقة بعينها . في صـدد

زوجي القتيل جرح فاسألوا هذه الساحرة كيف أصابه هذا الجرح.
لقد دخلت النيران لا يستر جسمها غير شعرها . ثم خرجت منها ترتدي
ثوبا من الملاحة الغير البشرية وناديت زوجي لكي يذهب اليها ويعانقها
ولم تستح هذه الوقحة بل محت نفسها عروسه . وقد فعلت هذا على
مرامي مني أنا زوجته وعلى مسمع مني . ثم أمرته ان يدخل النيران
فلما رفض والتجأ الى ذراعي أرسلته الى طريق الموت بكلمات قولها
فقالت :

« انزل على رأسك الموت أي كالكراتس الاغريقي . ليكن الموت
نصيبك والقبر مسكنك . . لقد رفضتني ونبذتني واهنتني في وجهي
فشاءت ارادتي أن تموت ويمحي اسمك من سجل الحياة . مت اذن
ياكالكراتس لكي لا تعذبني عيناك بعد الان ولكي اعرف كيف
اسخر من ذكراك واستخف بها » . هذه هي كلماتها فلتذكروها اذ
استطاعت . وأقول أيضاً انها كانت تسعي دائما لكي تضلل كالكراتس
فلما لم تستطع تعاقدت مع « تيفون » ولكنها لم تستطع أيضا أن توقعه
في حبائلها واحتقرها فقتلته مدفوعة بعاملي الغيظ والغيرة

سمع الكهنة والكاهنات قولها هذا فارتجفت أعضاؤهم واصفرت
وجوههم ثم طلبوا الي أن أجيبها على ما اتهمتني به ولكني قلت

ـ كلا . لا أجيب بكلمة . من انتم حتي اقدم لكم حسابا عما فعلته
او لم افعله ؟ ظنوا ما شئتم وافعلوا ما اردتم . لا احرى جوابا غير اني
أقول ان ما جرى كان بقضاء « القدر » الذي هو فوق كل اله والهة
والذى يجلس على عرشه فوق ابعد نجم في السماء

انسحب الجميع بعيداً وتحدثوا فيما بينهم وأخيراً تقدم الي الكاهن

وامس وهو لا يزال يحدق النظر الي ثم قال

ـ لا ندرى هل لا تزالين في خدمة ايزيس أي عائشة ابنة يعرب. على اننا قررنا نحن خدامها الذين تكبدنا كل هذه المتاعب والمشاق لاجلها أن نرفض رئاستك علينا فلم تعودى رئيسة الكهنة أي عائشة أو بالحري أيتها الروح الشريرة ولا ندعك بعد الان تقفين وسطنا أمام مذبح ملكة السماء

فأجبته قائلة

ـ ليس ما تريدون . اذهبوا ودعونى اعقد الصلح مع ايزيس التى صرت من الان فصاعداً قرينة لها . أرى من علامات الرعب التى تتجلى على وجوههم انكم تعتقدون انى اجدف ولكنى لم افعل شيئا من ذلك انى اتكلم بلسان هذه المعبودة الهه الحقيقة . والان الوداع . اوجو لكم مستقبلا حسناً وسأمد لكم يد المساعدة فى كل شيء اذا استطعت فيلو ، هل تريد مغادرتي أيضاً مثل هؤلاء الكهنة ؟

فاجابنى قائلا

ـ كلا أيتها الملكة . اننا رفيقان قديمان تجشمنا معاً أخطاراً عديدة بحيث لا يهون افتراقنا . انى اغريقى دخلت خدمة ايزيس بعد ان التقيت بك أي بنت الحكمة الحسناء ورأيت أعمالك على سطح السفينة هاتى . وقصارى القول ساتبعك أينما سرت . لا اعلم هل قتلت كالكراتس هذا أو هل قتل نفسه بسيفه ولكن اذا كنت قد عرضت عليه حبك ورفضه فانى أقول كرجل انه يستحق ما أصابه وفيما عدا ذلك أقول أنى تاجر احصل على ربحى أينما وجدته واعلم انك تجزلين العطاء وعلى ذلك سانضوى تحت لوائك الي النهاية واتبعه أينما قادنى : اى سماءايزيس

أو الى حيث ذهب آبائى وأجدادي فالتقى هناك باشيلس وهكتور وعوليس وغيرهم من أبطال البحار الذين يتغنى بهم هومر . ان المكان الذى تتزلين به هو وطنى لانى سأجد في منزلك دائما غرفـة لي وعلى ظهر سفينتك مكانا اقف فيه مهما طال السفر

نطق الافريقى الداهية بهذه الكلمات ولعمرى شعرت بامتنان عظيم له فى ساعة وحدتى هذه كما أشعر به الان والى الابد لانه كان مخلصا لمن يحب وكان يشعر نحوى بذالك الحب الذى يتولد من المعاشرة الطويلة والخدمة

تبسمت في وجه فيلو وسألته قائلة

— أما وقد فهمت بهذه الكلمات فماذا ترى فى أميرة مصر ؟ دعها تفصح عن رغبتها حتى أنفذ ماتريد اذا استطعت

فاجابت أمونارتس قائلة

ـ ان الامر بسيط . أريد التخلص منك لا أقل ولا أكثر. أريد مغادرة هذا المكان لاحمل طفلى وأربيه وأوصيه ان ينتقم منك لاجل دم أبيه التي هدرته أيتها الساحرة وساعمل وأتوسل ان تكون الشياطين قوادك أيتها القاتلة

فجبتها بهدوء قائلة

ـ ليكن ماتريده يد القدر . لقد نصب مرسح القدر وستلعب دورنا عليه نحن العوبة القدر الي النهاية . ولكن كيف ينتهى دورنا أيتها الاميرة أمونارتس ؟ انك لاتدرين ولا أنا . فيـلو . رافق ابنة فرعون الى الشاطيء أو الى أى مكان تريده حتي تجد طريقها الى بلاد الافريق أو مصر . واذا مافرغت من مهمتك هذه عد الي واخبرني بما

تم . رافقتك السلامة يا أمونارتس

ـ رافقك الشر أيتها الساحرة . اننا نفترق الان ولكنا سنلتقى ثانية فى مكان آخر اذ بينى وبينك حساب يجب ان نسويه

فاجابتها قائلة

ـ نعم ولكن لاتفخرى يا أمونارتس ولا تكوني شديدة الثقة بشيء ، اذ من يدرى هل ترجح كفتى أو كفتك اذ ماسوينا حسابنا

ـ أنى أعرف على الاقل ان حسابنا طويل وان القتل ثقل كبير اذا وضع فى أية كفة من الميزان

ذهبت أمونارتس وذهب الجميع وخلفونى وحيدة أفكر على كرسى الراسة الذى جلست عليه لاخر مرة

أخيراً احاطت بى الظلمة وبان نور القمر الضئيل فرأيت شبح رجل يزحف نحوي مثل اللص فناديته قائلة

ـ من هذا ؟

فاجابنى صوت غليظ قائلا

ـ أنا رامس الكاهن أيتها الملكة الحسناء

ـ تكلم يا رامس

ـ أواه أيتها الحسناء . لقد ألقاك هؤلاء الجهلاء عن عرشك ونبذوك

ـ هذا ما أخبرتنى به منذ هنيهة يارامس ولا أري وجها للوم

ـ لقد أخبرتك بذلك لانى كنت مرغما ولم تكن هذه ارادتى . قضى الامر ونبذك الكهنة جانبا وانتهت عبادة ايزيس فى خور لانه

ليس هناك من يملأ مكانك ولكن احمني . احمني . انى أتملق بك . انى اهواك . انى أعبدك أريدك زوجة لى أيتها الحسناء الفتانة فنحكم معا هنا في خور فتكونى انت ملكتها ومعبودتها وأكون أنا قائدها

— من الحكمة واصالة الرأي ان تقبلى ماعرضته عليك أيتها الملكة المقدسة

— ولماذا ؟

— لانى أستطيع أن أحميك . لا أخالك تجهلين نصيب الذين ينقضون العهد والميثاق وأقول انه صدر الحكم عليك بذلك فعلا وان هؤلاء اللئام يسمون لقتلك . فاذا اتخذتني زوجا لك استطعنا ان نقتلهم أو نطردهم وهكذا أكون لك درعا تقيك كل أذي وشر

سمعت قوله فلم يسعنى الا ان أغربت فى الضحك . والظاهر ان هذا الاحمق فسر ضحكي هذه تفسيراً غريبا وعلى كل حال رأيته قد القي نفسه على وأمسك يدى ورفعها الى شفتيه ولكنه لم يقبلها لان الغضب كان قد تملكني ، غضب مريع كذلك الغضب الذي تملكني في كهف النيران فصرخت فى وجهه قائلة

هل تجرأ أيها اللعين واللص الوقح الشرير على ان تدنو منى تلك ؟ الا سحقا لك . اذهب الى « ست » فلا يعرفك العالم بعد الآن

وبينما كانت الكلمات تخرج من فمي شعرت كان نارا وثبت من جسمي وضربت الرجل كانها صاعقة فرفع يديه الى رأسه ثم ترنح الى الوراء وسقط على الارض ثم تأوه — وفارق الحياة

نظرت الى الرجل وهو ملقى على الارض في ضوء القمر لاحراك به فادركت أخيراً أنى أستطيع من الان فصاعداً ان أقتل من أشاء

بمجرد الفكرة واني صرت « سيدة الموت » وان الغضب الذى يعبر الناس عنه بالالفاظ يندفع مني بكل ما أوتيت السماء من قوة . وقد علمت فوق ذلك ان هذا الغضب يثور فجأة في نفسي وان من السهل اطلاقه من قيوده ولكن من الصعب كبح جماحه . نعم صرت صاعقة لايجرأ انسان على اغضابي اذا كان يريد البقاء على قيد الحياة

جاء فيلو فاحدق النظر الى رامس القتيل ثم نظر الى نظرة استفهام فاجبته قائلة

ـ لقد اراد ان يضع يده على يا فيلو فقتلته

ـ اذن لقد نال جزاءه الحق . ولكن كيف قتلته أيتها الملكة ؟ لا أرى جرحاً في جسمه ولا أثر الضربة

ـ قتلته بقوة جديدة جاءتني يا فيلو . لقد أردت ان يموت فمات هذا كل ما جرى

ـ يالها من قوة غريبة مروعة ياسيدتي . عليك ان تراقبي اطوارك من الان فصاعداً يابنت الحكمة والا لاتمضى مدة وجيزة حتى نفترق لانك تغضبين على في بعض الاحيان فاذا حدث ذلك صرت في عداد الاموات لامحالة

ـ نعم يافيلو هذا ما عندي . يجب ان أراقب أطواري جيداً . ومع ذلك لاتخف فانى لن أتمنى موتك

ـ هل أنت واثقة ياعائشة ؟ اصغي الى . ماهي جريمة هذا الشقى المسكين ؟ اليست جريمته نه حين حاة بغرامك ـ بعد ان كان رجلا صالحاً لم يصب قلبه حتى الان الى امرأة ـ فسول له جنونه ان يطلب اليك التزوج به وهو مايفعله كل رجل فقد عنان عقله فكان جزاؤه

القتل والهلاك ؛ اذا كانت هذه الجريمة كافية بقتل الرجال فاخبريني كم رجل يفلت من مخالب الموت ليبلغ الشيخوخة، أظن ان الجحيم لا يلبثون ان يساقوا الى الكهوف والمغاور لكي يعيشوا مثل نوت الناسك في الصوامع . اليس كذلك ياسيدتي ؛ اخبريني يامن عركت الايام وعرفت مافي العالم

فاجبته قائلة

— نعم هو ماتقول

— اذا كان الامر كذلك فاسمحي ان القي عليك سؤال آخر وهو ما الذي خبل عقل هذا الرجل ودفعه الى الجنون ؛ اليست رؤية ملاحتك هذه التي لم ير لها مثيل في العالم ؛ ملاحتك التي لو أطلت اليها النظر قليلا ياعائشة ذهب عقلي أنا أيضا لامحالة كاى رجل اخر . اعلمي يابنت الحكمة ان ملاحتك هذه التي ظهرت بها اليوم هي أعظم لعنة يمكن تمضيها الآلهة لامرأة وعليك من الان فصاعدا ان تتقنعي و لا اصبحت قاتلة لكل رجل تقع على ملاحتك عيناه

فقلت بحزن

أرى انك على صواب يافيلو . لقد تاقت نفسي الى الجمال فكان لي ما تمنيت ولكن ليس كل الهبات نعمة مهما عظمت

— هذا ماسمعت الفلاسفة يتحدثون به في بلاد الاغريق ومع ذلك لم ار واحداً منها يرفض هبة أو منحة . أحنى على هاتين العينين ياعائشة أخفيهما في الحال . مادامت جثة راس ملقاة أمامي فالحب خائف ولكن من يدرى ماذا يكون بعد نقلها ؟ اه . قد نسيت . اعلمي أيتها الملكة انه صدر عليك حكم يشبه الحكم الذى أصدرته على راس

هذا وقد جئت لحمايتك

فضحكت ملء شدقي وقلت

ـ يا لك من غبي أحمق ! الا تدري الى الآن انني لا اقتل ولا أمس بقل أذى ؟

فرفع الرجل يديه دهشة وقال

ـ رحماك أيتها الالهة

ثم لزم السكوت

***

نمت تلك الليلة بجانب جثة كالكرانس الباردة ويالها من ليلة مروعة لم ار لها مثيلا في حياتي الطويلة على الارض فقد شاهدت أحلاما مخيفة خيل الى فيها ان نوت يحدثني . كلا لم يكن نوت بل لسان من النار هو روح نوت فلم ار شيئا غير هذا اللسان المتقد وقد خاطبني بهذه الكلمات الرهيبة قائلا

ـ ابنتي . لقد القيت نصائحي الى الرياح وخنت عهدك ونقضت أوامري التي استخلصتها من الحكمة التي وهبت لك ، فدخلت النيران التي عهد اليك بحراستها فاحتضنتك وتلقيت هباتها وعطاياها فانظري ماذا كانت أول ثمرة لها . ان الرجل الذي يهواه قلبك ملقى بجانبك جثة هامدة ، وهناك في فناء الهيكل توجد جثة رجل ظل طول حياته صالحا الى ان حولته ملاحتك القتالة الى رجل شرير ، ثم قضي على عبادة ايزيس في هـذه البلاد التي لن يقوم فيها شعب قوي نقي . لقد سحق قلب الاميرة أمونارتس ومع ذلك ستحيى الى ان تلد من يأخذون بالثار وسيلحقك أحدهم في الوقت المعين . ستعيشين في العزلة والانفراد

والندم الى ان تموت النيران التي لاتنطفيء لها جذوة مادامت الارض باقية ، تبحثين فلا تجدين أو اذا وجدت تفقدين ماتجدين. ستكونين من الان فصاعداً غريبة عن جميع الرجال ، ذات ملاحة مريعة يتوق اليها الجميع ولكنهم يخافونها ويمقتونها . سيفلت منك كل ما تسعين وراءه للحصول عليه مثل كوكب دوارلن تدركه يداك وستجدين الهلاك على رأس الوف أثناء اقتفائك أثره . لقد نزلت على رأسك اللعنة يا ابنتي

فسألت نوت فى رؤياى هذه قائلة

ـ أليس هناك صفح وغفران ؟

ـ نعم يا عائشة عند ما ينال العالم الغفران فاذ ذاك قد تجدين نصيبك من الصفح والغفران اصغي الي . توجد رؤيا شغلت بالك في جميع أيام حياتك ، وقد استدعيت افروديت في تلك الرؤيا مع آلهة الشر واوقفت أمام عرش ايزيس ثم وضعت على كاهلك أيضاً مهمـة هى محاربة تلك الالهة والقضاء عليها في مصر

فأجبته قائلة

ـ كانت هذه اضغاث أحلام . فقد علمت الآن ان ليس ثمة آلهة للشر ولا افروديت حتى ولا ايزيس

ـ انك تخطئين يا ابنتي . نعم ليست هناك ايزيس كالتى صورها الناس في أحلامهم ومع ذلك هناك ما يسمونها بايزيس والتى أحجم البعض أن يتصوره عقل الانسان . هناك « الخير » الابدى وهـذا « الخير » هو الله . وقد ظل الانسان خلال الاجيال التى لا تحصى يكافح الطبيعة ويقاتلها ويرفع قلبه الى فوق حتى كاد ينظر وجه ذاك « الخير »

العظيم . لقد كان هذا حالك يا ابنتي والآن الى أية وجهة تحولت القد هرعت من الطريق الخلقى فنقضت كل شيء وعدت ثانية الى الطبيعة، كانت الطبيعة نفسها ، تلمعين بجمالها الكاذب الزائل وتتمتعين بقوتها الفاشية القتالة : أنت التي اقتربت من قانون الحياة التي كانت تنتظرك فيما وراء القبر

فاجبته بنفس متألمة قائلة

ـ لقد فعلت ما فعلت مدفوعة بالحب ، وسينقذني الحب

ـ نعم يا عائشة سينقذك الحب في النهاية بلا مراء كما انقذ كل شيء كتب عليه الفناء الابدي اذا لم ينل نعمته . ومع ذلك فان هذه لرحمة لا تزال بعيدة عنك اذ عليك قبل ان تناليها ان تتغلبي على جميع النزعات التي حملتك على دخول النيران الواحدة بعد الاخرى . لقد كتب عليك يا من أردت التمتع بالجمال الابدي ، ان ترى جسمك المليح خبيثاً مشوهاً يفر الناس منك عند رؤيتك كما يفرون من المجذوم . لقد كتب عليك أن تكوني البقة كالحمامة ضعيفة كالطفل يا من افعمت قلبك بالغضب والقوة ، فبالالام والمتاعب يجب أن تتعلمي كيف تخففين آلام غيرك ، وبالتفكير يجب أن تكفري عن جرائمك وبالايمان يجب أن ترفعي روحك وبالمعرفة يجب أن تتعلمي جهالتك واحتقار نفسك . هذا ما كتب عليك يا عائشة وهذا نصيبك

***

هذه خلاصة الرؤيا التي رأيتها فلما استيقظت بكيت بكاء مراً . ولا عجب فقد ادركت انى سقطت . وانتزع من يدى كل ما جمعته خلال الاعوام الطويلة التي قضيتها في التعبد والصلاة وخدمة المعبودة ،

وسقطت الى هاوية لا قرار لها من الاحزان والالام بعد ان كنت واقفة على مقربة من دواعي الابتهاج والسرور . لقد سمعت نوت يقول فى رؤياى انه لا يوجد شيء اسمه ايزيس وهذا ما عرفته من معلوماتى وحكمتى أيضاً . ومع ذلك يوجد « الخير » الابدى الذى عرفوه فى مصر باسم ايزيس وفي بلدان أخرى باسماء متعددة . فلم تعد الي صلة بذلك « الخير »

لقد صرت مثل أجدادي الذين تقدموني بالوف من السنين جزءاً من الطبيعة كما نراها على الارض ونشعر بها فى دمنا . فصارت جميع قواتها قواتى وملاحتها ملاحتى ورغباتها رغباتى وبغضها بغضي ولكن على ان استأصل من روحي المسممة كل هذه النزعات واطهر حديقتها من جميع النباتات الخبيثة السامة . لقد سقطت اللعنة التي صبت على رأس الطبيعة على رأسى أيضا وعلية سيكون نصيبها من الهلاك نصيبي

هـذا هو الهلاك الذي جرته على رأسى حين اصغيت الى نداء اله النيران

أواه . نظرت بجانبي الى جثة كالكر تس الباردة ، كالكراتس الذى احتقرنى ونبذني وحول وجهه عن ملاحتى ورفض حبى ، ثم شعرت بنيران عواطفى تتأجج في صدرى فبكيت ، أنا عائشة التي نبذتني السماء ما شاء لى البكاء كما لا أزال ابكى الى اليوم وغد

لا عجب . ان هذا نصيب الذين يطأون باقدامهم الخير وهيتو فترون وراء اللالىء الكاذبة التي ينثرها المغرور بهم أمام أعينهم

من المحتمل ان نوت لم يعكر صفو راحته الابدية لكي يخاطبني فى أحلامى بل ربما كانت تلك القوة الخفية الكامنة في روحي هى التى

خاطبت قلبي لان تلك القوة أتت فيما مضى بالمعجزات وكنت احسبها من عمل ايزيس

ولكن مهما يكن من الامر فان الدرس الذي تعلمته في رؤياي حق وصدق

الفصل الخامس والعشرون

في عزلة لا تموت

غادرت خور لمقوتة عند الفجر برفقة الشيوخ الثلاثة المحنطين حاملين معنا جثة كالكراتس . واظن انه لم يلاحظ خروجي أحد لأن الكهنة والكاهنات هالهم ما أصاب رفيقهم رامس فنسوا انتقامهم والتفوا حول جثته وهم يرتجفون خوفا وفرقا داخل هيكل الحقيقة . على انى شعرت في الواقع بعيني أمونارتس تراقباني أو ربما لم اشعر بغير كراهيتها المقوتة تشيعني

اجتزت السهول وقد اسدلت قناعا على ملامحي القتالة الى أن وصلت الى كهوف واسعة على شكل مقابر وهنا أضاء المحنطون سراجا اروني على نوره قبراً واسعا خاليا ، وكان به تجويفان فوضعت جثة كالكراتس على احدهما واخترت الاخر ليكون سريراً لي . وهكذا اتخذت لى مقاما بين مقابر خور حيث عشت اكثر من الفي عام

***

رافق فيلو الاميرة امونارتس الى خارج المدينة عملا بامرى ثم عاد بعد ثلاثة شهور واخبرنى انها اجتازت المستنقعات وسافرت على سفينة ابحرت بها شمالا فلم اشدد في سؤاله لانى لم اشأ أن اسمع لعناتها التى صبتها على رأسي وقد رافقها بعض الكهنة وتخلف الباقون فى خور فتزوج الذين كانوا فى مقتبل العمر منهم وحكموا هناك . وقد مات آخر سلالة منهم استطعت ان اتتبع نسبه قبل أن يختلط دمهم بدم البرابرة ،

بعد خمسمائة عام أو أكثر

وعاش فيلو كذلك في خور فاشتغل بالتجارة وقام برحلات تجارية الى الشاطىء فاثرى وصار عظيما الي ان ادركته الشيخوخة فمات بين ذراعي ولما اسلم الروح بكيت للمرة الاولى منذ تلك الليلة التى بتها في خور لانى صرت بعد ذلك وحيدة .

وقد توسل الى فيلو وهو على فراش الموت ان اسفر عن وجهي قائلا انه يريد أن يري ملاحتى ثانية ففعلت فاخذ يتفرس فى وجهي طويلا ثم قال

ـ ان جمالك فتان مدهش . لعمرى لم تنقص ملاحتك ذرة واحدة عما كانت عليه منذ أربعين عاما أي عند ما رأيتك سافرة الوجه لاخر مرة فى هيكل الحقيقة ، بل بالعكس يخيل الي انك زدت ملاحة فما معنى هذا يا بنت الحكمة ؟

ـ معناه ما اخبرتك به من قبل يا فيلو وهو انى لا أموت حتى يموت العالم ولو انى قد أتغير

ـ أما أنا فانى أموت . هل نفترق الى الابد اذن ؟

ـ كلا . لا أظن يا فيلو لان الموت لا بد ان يدرك الجحيم في النهاية واذ ذاك سنلتقى ثانية لا محالة

ـ ارجو ذلك يا بنت الحكمة . انهم يدعونك الساحرة ولا ريب فى انك كذلك لانك تستطيعين ان تقتلى بنظرة ، والشيخوخة لا تعرفك والموت لا سبيل له اليك . ومع ذلك اعلمى يا عائشة سواء كنت امرأة أو ساحرة أو كلتيهما انه لن يخلد على الارض أحد

على هذه الحال مات فيلو . ولما كان الشيوخ المحنطون قد ماتوا

أيضا فقد دفنته في المقابر دون ان اقي جسمه من الفساد وقد خطر ببالي أخيراً أن ألقي عليه نظرة بعد الف وستمائة عام فلم أجد من آثاره شيئاً غير جمجمة رأسه أما عظامه فقد تحولت الى تراب

***

الان ماذا أقول بعد كل ما رويته ؛ لقد مات الجميع وجاءوا ثانية في أطفالهم فراقبتهم جيلا بعد جيل وهم ينمون ويترعون ثم يسيرون في طريق الموت وقد حكمت هؤلاء البرابرة اذا كان هذا يسمى حكماً فكانوا لي عبيداً يرهبون بطشي وسلطتي ، وكنت أحسن معاملتهم فاذا اغضبوني قتلتهم وكانت هذه هي الوسيلة التي يمكن بها التسلط عليهم وكبح جماحهم

وفي الواقع كان « أمة حجر » هؤلاء متوحشين شرسين يحبون الظلام ، اذا عثروا على غرباء بينهم قتلوهم بوضع القدور المحماة على رؤوسهم ثم اكلوا لحمهم بعد ذلك ومع ذلك كان بينهم عنصر أعظم نبلا من سلالة قدماء خور او من سلالة الكهنة المصريين الذين رافقوني الى خور ، اذكر من هؤلاء رجلا اسمه بلال يعرفه سيدي ليوفنسي وهولي على ان معظمهم كانوا من المتوحشين الخائنين ذوي الانوف المقوسة

ولكي اخفف من كاهلي عبء العزلة الثقيل اشتغلت بتربية بعض « امة حجر » وتحويلهم الى اقزام والبعض الآخر الى مردة ، وقد استغرقت هذه العمليه أجيالا طويلة وأخيراً مللتها فتلاشى جميع هؤلاء المخلوقات واندمجوا في بقية الشعب ثم ربيت طرزاً آخر من الصم والبكم فاخلصوا لي واحسنوا خدمتي

ولكن كفى ما ذكرته من ذلك الشعب الذي فرغت منه الى الابد

***

كيف قضيت تلك الاجيال المروعة ؟ لما وجـدت فى البداية انى اتمتع بقوة مدهشة أرسلت روحي الى العالم واخذت اراقب ما يجرى فيه فرأيت حروب الاسكندر وفتوحاته ثم وفاته ثم قيام البطالسة فى مصر وغير ذلك مما جرى فِي البلدان الاخري التى كانت لى بها صـلة . على انى لم البث ان ملت نفسى كل ذلك

قام رجال لا أعرف عنهم شيئاً وتغيرت شعوب . وكانت الرواية هينها تمثل تباعا ولـكن كان يقوم بتمثيلها أبطال آخرون ، ولما لم تكن هنالك رابطة مشتركة تربطنى بهم أو بعظامهم لم احفل بهم ولا بما لا يفعلون أثناء رحلتهم القصيرة على الارض الى عالم النسيان حيث يدفنهم تراب الزمن — وهكذا كان العالم ميتاً في نظرى كما كنت ميتة في نظره

أرسلت روحي فى السنين التى تلت ذلك لمناجاة الارواح الاخرى فاكتسبت منها معرفة واستفادت منى حكمة . وفوق ذلك بحثت عن الموتى في مساكنهم وراء الكواكب فوجدت عدداً غير قليل منهم . وكانوا يتوقون الى معرفة أنباء العالم الذى غادروه فكنت اطلعهم على ما جرى مقابل ما كانوا يقصونه علي من أنباء العوالم الاخرى وتعرفت بأمرائهم وحكامهم وجمعت الفتاة المتساقط حول موائدهم وشربت حثالة خمرهم الجديدة

على انى واأسفاه لم استطع مرة ان أمس هدب ثوب ممن عرفتهم على الارض فلم أجد والدى ولا نوت ولا كالـكراتس ولا فيـلو ولا يلطيس ولا أموفارتس ولم أر فى هذا الجمع الذى لا تحصى روحا واحدة خاطبتها شفتاى على الارض . نعم لم أعثر على أحـد سواء من أحبائي

أو أعدائي ولكن ربما لايزالون نائمين ..

نظرت الى أسرار الطبيعة فتفتحت لى كما تتفتح الزهرة لنور الشمس فعجبت بجمالها وتنفست من عبيرها بحيث لم يبق منها سر مكتوم . وقد تعلمت كيف أحول الخزف الى ذهب نضار وكيف اسخر البرق لخدمتى وغير ذلك كثير ، ولكن مافائدة ذلك كله لى أنا الساكنة في قبر ؟ ان المعرفة منحة لاتجدى مالم تصر خادمة مهمتها عمل الخير للانسان

***

ثم ماذا فعلت ؟ غرست أشجاراً حول الكهوف ثم راقبتها وهى تنمو ثم وهى تورق وترسل أغصانها في الفضاء . وقد ظلت على هذه الحال مئات من السنين الى ان اصابها العطب فى النهاية فشاخت وتحولت الى أغصان نخرة ثم سقطت وتلاشت وانتهت أيامها الطويلة في النهاية أما أنا فقد غرست لنفسى أشجاراً أخرى

وقد خشيت ان تمربى السنون والاجيال فلا أستطيع أن أحصى لها عدا فأخذت أضع فى كهف معين حجراً كلما مر عام ، مضت عشرة أعوام وضعت حجراً أكبر ، وكلما مرت مئة وضعت حجراً أكبر من الاخير في حين كنت ارمز لكل الف سنة بهرم صغير ويوجد الان هرمان فى كهوف خور . وكانت هذه خطة جيدة استطعت ان أحصى بها السنين بسهولة

لماذا بقيت فى خور؟ ولماذا لم أجب أقطار العالم؟ لانى لا أستطيع لان اللعنة التى منيت بها تحتم على البقاء هنا الى ان يعود الى كاليكراتس ثانية ولم يكن لدي شك فى عودته . وعلى ذلك لا اخال العالم قد نعم باسير مكبل بسلاسل واغلال أثقل من السلاسل والاغلال التى كبلتنى

بها تلك اللعنة في كهوف خور حنت بتاليه بعد أخرى مع جثث الموتى الباردة. وكنت من حين الى آخر ارفع الغطاء عن جثة كالكراتس وأنظر الى وجهه الاصفر الجميل وأقبله فى جبينه البارد ثم ابكي ما شاء لي البكاء وبعد ذلك القي عليه غطاء جديداً وأسير في طريقى الشاق المؤلم

ويلاه ! ان كل شيء في هذا العالم يتغير حتى الحجارة الا أنا ولكن هذا هو نصيبى وهذه هي المنحة التى اغدقها على ملك النار الذي اقترنت به وعانقته . فهناك جلست بملاحق التي كتب على ان أحفيها لكي لايجن الرجال عند رؤيتها فاسقيهم كاس الردي وأنسفهم بصواعق ارادتى هناك أرسلت أفكاري الى سماء التأملات وارتشفت كؤوس الحكمة التي لم افز منها بطائل اللهم الا تقييد شعوري وحبس روحى

هناك جلست تنهش جسمي عقارب حب رجل مات ، وتشتعل فى قلبي نار الغيرة والكراهية لتلك المرأة التى حملت طفله في بطنها والتي عاشرته أكثر مني وشغلت المركز الذى كان لى

نعم جلست هناك بين الاطلال والخرائب بينما كانت نيران الزمن البطيئة تتقد فى صدرى وتتغلغل فى جسمى حتى تحولت روحى الحارة الى رماد اليأس المر

أواه ! لماذا لم يأت كالكراتس ؟ لماذا لم يأت ؟ لاريب في ان الدائرة قد تمت واكتمل الوقت لقد مل بلا مراء حقول السماء المجهوله وسئمت نفسه غرام الاميرة المصرية . سيأتى بلا ريب وسيأتى حالا فقط ما العمل اذا كانت أمونارتس لاتزال ترافقه هنا كما كانت ترافقه

هناك ؟

أخيراً جاء رجل ولما علمت بقدومه اشتعل قلبي بنار الامل كما تشتعل شعلة في هذه الكهوف المظلمة ولكن وا أسفاه لم يكن هو وقد علمت ذلك عندما وقعت عيناي عليه من بعيد فانطفأ سراج أملي وضاقت بي الارض بما رحبت وكدت أبعث هذا الرحاله المسكين الى قبره على انني ملت اليه فيما بعد لانني وجدت فيه ماذكرني بفيلو

وكان الرجل غريب الاطوار لايؤمن بشيء لايقع تحت حسه ، فلما أخبرته طرفا من قصتي وحياتي الطويلة وملاحتي سخر بقولي علانية وضحك مني فغضبت لعمله هذا ولو انني في الواقع لم أخبره الحقيقة كلها ، ولكن لاعجب افلست جزءاً من الطبيعة ، وللطبيعة وجوه متعددة فيرى السائح في الصحراء ماليس له أثر ولا وجود ، ولو انه يوجد في أماكن أخرى ؟

نعم عاملت هذا الرحاله واسمه ألن كما عاملت هولي العالم من بعده على انه حول ظهره نحوي قائلا انه رجل لايعرف قلبه الحب وانه لايريد ان يكون كالفراش يحرق جناحيه في لهيب مهما كان لامعا،وقد عجبت من خطته هذه الغريبة وقلت هل أخذت زهرة ملاحتي هذه تذبل ياترى وهل لم تعدلي حاجة الى قناع يحجب وجهي ؟ أو هل زاد الرجال حكمة عما كانوا ؟ على انني أطلقت قوتي هنيهة فارغمته على ان يجثو أمامي وعلمته دروسا بليغة ثم ضحكت منه وتركته

أواه . لقد سئمت نفسي هذه المهمة الطويلة المحزنة ، فلتكن نهاية قصتي قصيرة

* * *

أخيراً . أخيراً جاء كالكراتس وقد ولد ثانية ، ناسيا ماجرى »
متغيراً فى الروح ولكنه كان هو في الوجه والجسم . وقد جاء به هولى
الى هنا أو هو الذى جاء بهولى بعد اطلاعه على وصية كتبتها أمونارتس
على قطعة من الفخار حضت فيها أحد سلالتها على انه يبحث عني
ويقتلني زاعمة ان للموت سبيلا الى

جاء كالكراتس ولكنى لم أعلم وحق السماء بقدومه الا بعد ان
أخذنى هولى الدميم الخلقة الى فراشه حيث وجدته مصابا بحمة شديدة
وكان على وشك الهلاك ولكني استطعت بفضل قوتى ومهارتى ان
انتشله من مخالب الموت ، ثم كشفت له عن ملاحتى فيا بعد مدفوعة
بقوة وجدى وغرامى وحملته على عبادتى

ياللعجب لقد وقع ما كنت أخشاه . فقد جاءت أمونارتس معه »
أمونارتس عدوتى اللدودة ولو انها جاءت في شكل امرأة متوحشة
تدعى « أوستين » وكانت قد عشقته ووقعت فى شرك غرامه قبل
ان يلقانى

قتلت تلك المرأة لانها كانت عنيده لم تشأ مفارقته ، نعم قتلتها
مرغمة ولو ان عملي هذا قد احزنني . على ان هذا الامر لم يكن بذى
بال لانه لم يلبث أن نسيها وقيد بسلاسل حبي وغرامي

لست في حاجة الى ذكر ما جرى بعد ذلك لان هولي يعرف كل
شيء وقد اخبرنى انه دون ذلك في كتاب . على انى أقول انه لما لم يكن
في وسعي الاقتران بكالكراتس الثانى — الذي عاد الي الآن باسم
ليوفنسى — فقد قدته في تلك الطريق المروعة الى ذاك الكهف الخفي
حيث تسير روح الحياة فى طريقها الذى لا نهاية له ، فوجدتها بعد ألفى

عام كما كانت فى أول مرة . وقد يخشى كالكراتس مرة أخرى أن يدخل النيران ليلبس ثوب الجلال ويصير ملك العالم الذى لا يفنى ولا يموت وعلى ذلك لكي اشجعه على الدخول القيت نفسي مرة أخرى بين أحضان اله النار — فماذا جرى ؟

قتلنى فى هذه المرة . نعم مت ولبست ثوب العار وصرت بشعة دميمة الخلقة مثل قرد طاعن في السن ومع ذلك منحتنى روحى القوة أثناء نومي فتمتمت فى أذن كالكراتس انى سأعود ثانية الى الحياة والبس ثوب الملاحة مرة أخرى

كلا . لم امت بل تقمصت روحى جسما آخر في هذه البلاد الاسيوية البعيدة وهي موطني الذي رأيت فيه نور العالم الاول مرة . وهنا عشت في هذا الدير الجبلى حيث لا يزال هناك أثر لعبادة ملكة السماء

لم يمض عامان أو ثلاثة حتى وجدت لدى القوة فبحثت عن كالكراتس أو ليوفنسى وكان لا يزال فى العالم على قيد الحياة فاريته الجبال التى اقطن فيها في رؤيا . وكان مخلصاً وفياً مثل هولى فاتبع الاثنان تلك الرؤيا وأخذا يبحثان مدى عشرين عاماً مسترشدين بها الى أن عثرا علي في النهاية

وقد اجتاز جميع العقبات والتجارب ونجا كالكراتس أو ليوفنسي من الشرك الذي نصبته له الملكة « اتين » وهي المرأة التى تجسمت فيها أمونارتس على الارض مرة أخرى ، وحملت جميع الاعباء التى أرادت يد القدر أن تلقيها على عاتقهما ثم وجد حبيبي قوة واخلاصاً فقبل جبينى المخيف المجعد عند ما اسفرت أمامه عن وجهى فوق الاكمة

وقد نال اذ ذاك جزاء اخلاصه اذ تحولت أمام عيني رأسه الى زهرة كل ملاحة وعجد كل قوة فعبدني وعبدني وعبدني !

***

الان لا تمضي مدة وجيزة حتى تتزوج وتسقط عنا اللعنة كسلسلة تكسرت حلقاتها ، ولا تلبث أن تغفر لي خطيئتي وأسير معه جنباً الى جنب في طريق البهاء الذي لا نهاية له ، طريق الفرح التام والسرور — ولكن الى أية نهاية يؤدي هذا الطريق يا ترى ؟ لا أدري حتى في هذه الساعة

على ان هذا لا يتم الان لان الرجل الفاني لا يختلط بي أنا الخالدة ثم يعيش . الم اقل اني شربت من كأس الحياة واني سابقى ما دامت الارض باقية ؟ نعم سأبقى كما أنا ولو تغيرت الف مرة وساظهر ثانية ولو انني اختفي في الظاهر ثم أينما ذهبت لا بد أن يتبعني كاليكراتس أو لا بد أن اتبعه لان كلينا واحد ولكن على ان ارفع روحه الى مستوى روحي

ولكن ، ولكن لا يزال كاليكراتس رجلا من البشر ، والموت يقتفي أثر الانسان . أواه اشعر برعب يدب في قلبي وأنا اسطر هذه الكلمات . نعم ان يدي ترتجف على الورق وروحي توجس خيفة . ما العمل اذا قضى عليه مرض أو حادث فجائي وغادرني مرة أخرى في عزلة وانفراد فتتجدد تلك المأساة المروعة مرة أخرى ؟

ألا سحقاً لك من فكرة جهنمية ! ليست هناك آلهة ، وأنت أيها القدر انى اسخر منك أنا التي حضرت نداً لك سأتغلب عليك أيها القدر أما أنت فلن يكون لك علي من سلطان . ليس هناك غير ذاك

« الخير » الابدي الذي خاطبني في شكل لسان من نار في تلك الليلة الرهيبة في خور ، فالى ذاك « الخير » وحده احيي الهام

لقد تألمت ! لقد سددت حسابي الى آخر درهم . لقد تحملت . لقد زرعت بالدموع والالام أجيالا طويلة فآن وقت الحصاد ، نعم مات ليل الاحزان وطلع فجر السرور وبان نوره فوق صخرة السلام . . . . ان سيدي يصعد فوق الجبل كعادة الرجال ، أما أنا فأفكر داخل الكهوف كعادة النساء . .

***

« ... هولي . هولي . استيقظ . انظر هناك . ما هذا ؟ أري سيدي يتعثر فوق الثلج وقد انشب الوحش الارقط أظافره في عنقه ـ ... »

***

الى هنا انتهت أوراق عائشة الخطية . وكانت الكلمات الاخيرة منها تكاد لا تقرأ وهي مكتوبة بيد مضطربة بلا مراء . وفي الواقع تدل صورتها على انها مكتوبة بيد انسان لا يعي شيئا . وقد ختمت عائشة بهذه الكلمات قصتها التي توجد بقيتها ملخصة في كتاب آخر يسمى باسمها . والظاهر انها ملت مهمتها أو ربما أحست بحادث النمر الذي كاد يقضي على حياة ليوفنسي وهو الحادث الذي كان فاتحة ويلات قاسية أشارت اليها فاربكت عقل عائشة أو ملاته بتكهنات حالت بينها وبين مواصلة عملها الذي اعربت عن مللها منه من قبل ؟ المؤلف

(تمت)